أندريه موروا
عضو المجمع اللغوي الفرنسي

وازن الأرواح

تعريب
الدكتور عبد الحليم محمود

مطبوعات الشعب

مطبوعات الشعب

التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة
والمشرف العام على التحرير

جمال الدين زكى

ستظل القاهرة .. دائما قلب العروبة والإسلام النابض .. تتبوأ مكانتها التاريخية والحضارية .. فى عالم الفكر والثقافة والنشر ..

الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة
ت ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٣٥٤٣٨٠٠ / ٣٥٥٧٧٣٠ / ٣٥٤٤٤٤١
قطاع النشر ٣٥٥١٥٩٩
رقم الفاكس ٣٥٤٤٨١١ - ص.ب ١٤ / رقم بريدى ١١٥١٦

أندريه موروا
عضو المجمع اللغوي الفرنسي

وازن الأرواح

تعريب
الدكتور عبد الحليم محمود

مطبوعات الشعب
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مقـــــدِّمة

بقلم : الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين . وبعد :

فإن الحديث عن الروح أثار على مر الزمن الكثير من الأسئلة ، والعديد من الأبحاث والدراسات المستفيضة ؛ ولم تتقدم الدراسات فى موضوع جوهر الروح وكنهها خطوة واحدة ، منذ أن بدأت الدراسات ، ومن أجل ذلك فصل علم النفس الحديث بين أمرين فى دراسة الروح :

الأمر الأول : هو دراسة الظواهر والمظاهر التى تخضع للملاحظة والتجربة ..

وهذه الدراسة يمكن أن تثمر مبادىء وقواعد تكون علم النفس ، ويكون مثلها فى علم النفس ، كمثل ظواهر الطبيعة التى تكون موضوع علم الطبيعة ، أو ظواهر الكيمياء التى تكون موضوع علم الكيمياء .

الأمر الثانى : هو دراسة الروح فى ذاتها ، فى جوهرها .

ولقد رأى علماء النفس أن يعزلوا هذا الموضوع عن جوهم العلمى ، وأن يتركوه للفلاسفة : يتخيلون فيه ويتوهمون .

وأخذ الفلاسفة يخوضون فى الموضوع عقليا ، ويحاولون الوصول فيه إلى يقين ، ولكنهم مازالوا يبحثون .

واختلف المتكلمون فى رأيهم عن جوهرها ، ومازالوا مختلفين ..

إن البحث العلمى أبعد موضوع جوهر الروح عن مجاله .. وأن البحث العقلى لم يصل فى موضوع جوهر الروح إلى رأى موحد ، واختلف علماء الكلام !!!

ونحب أن نتساءل الآن : ما هو رأى الأدباء فى موضوع الروح ؟ وهل إذا عالجوه يخفقون كما أخفق الفلاسفة ، وكما أخفق علماء الكلام ؟

إن هذه القصة التى بين يدى القارىء ، تعطى صورة عن معالجة الأدباء للموضوع ، وهى بقلم كاتب من أشهر الكتاب فى فرنسا فى العصور الحديثة هو : أندريه موروا .

وقد اشتهر بالتحليل النفسى والاجتماعى ، ويتميز أدبه بأنه أدب فكرة ، كما هو أدب أسلوب .

وقد كنت قرأتها منذ زمن بعيد ؛ لقد قرأتها أيام أن كنت طالبا بجامعة باريس ، وترجمتها بعد عودتى ، وكنت إذ ذاك مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية .. ولعل تدريسى لعلم النفس بالكلية على أسلوب الدراسة فى العصر الحديث — أى على أسلوب أتجنب فيه البحث فى النفس وجوهرها — هو الذى حدا بى إلى ترجمتها ، لأسد ثغرة فى الدراسة ... ولقد أعجبنى على الخصوص ، هذه المناقشات التى دارت أثناء القصة عن النفس فى مستوى راق ، وفى صورة جميلة .

ولا أزعم – وقد ترجمت القصة – أنها حلت مسألة الروح ، أو أنها أتت بالكلمة الأخيرة فى الموضوع ، ولكن الذى لا أشك فيه ، أنها ستثير التفكير فى أمر الروح من جوانب متعددة ، وتكون بذلك قد أدت الغاية التى توخيتها من ترجمتها .

لقد أحببت – فضلا عن سد الثغرة فى الدراسة – أن أنقل الناس – ولو لفترة محدودة – عن التفكير فى المادة ، إلى التفكير فى الروح ..

فلقد انصرف الناس – بكل ما يملكون من طاقة – إلى الجرى وراء الدنيا ، فاستعبدتهم ، وصرفتهم حتى عن التفكير فى أنفسهم ، وأجهدتهم حينما رأوا ألا سند لهم من عمل صالح يربطهم بالله ، فبدوا وعليهم سمات المساكين ، وطابع المجهدين : مجردين عن قوة روحية ، تدفعهم فى عارج القدس ، وفى منازل الأرواح ، إلى القرب من النور الأزلى : نور* الله .

إن الناس يعيشون فى ظلمة من النفس ، وفى ظلمة من البعد عن الله ، وفى ظلمة من شقاء المعصية : لا يتعظون بالموت ؟ وكفى بالموت واعظا ، ولا يستجيبون لنداء الدين ، وأن فيه – لو تأملوه – علاجا لآلامهم ، وبلسما لجراحهم ، وإخراجا لهم من الضيق والهم ، إلى السعادة والنعيم .

وإذا ما أخرجتهم هذه القصة من الآلية التى يسيرون على نسقها فى حياتهم ، فوضعتهم فى جو آخر ، وصرفتهم – فترة من الزمن – من التفكير فى المادة إلى التفكير فى الروح ، فإنها تكون بذلك قد أدت الهدف منها .

وقد يتساءل قوم قائلين :

هل لهذه القصة صلة بما يسمى « تحضير الأرواح » الذى شاع فى هذه الأيام ؟

أتؤيد القصة تحضير الأرواح ؟

وعن هذا السؤال نقول :

إن القصة لا شأن لها بهذا التهريج ، الذى يسميه ممثلوه « تحضير الأرواح » فليس ما يحضر فى هذه الجلسات التى يعقدونها ، أرواحا لبنى البشر ، وإنما هو أنواع من الجن تحضر سخرية ببنى البشر أو تضليلا لهم .

ولقد كتب عن تحضير الأرواح ، فضيلة العارف بالله ، المحدث الكبير ، والعالم النحرير ، فضيلة الشيخ محمد الحافظ التجانى ، ردا على سؤال ، فقال :

وهذا المذهب يزعم أصحابه أن الأرواح التى انتقلت من هذه الدار يستوى فيها المؤمن الكافر ، والعاصى والطائع ، وإنما العبرة عندهم بأن لا يؤذى الإنسان غيره ، وتكون أخلاقه : الإحسان إلى الناس ، ومن كان مجرما قاتلا فاسقا ، مؤذيا لغيره ، يمكث مدة فى مكان خاص ليهذب ويصفى ، ثم يلتحق بالمنعمين .

وقد استخدمت اليهودية العالمية هذا المذهب ، لتحطيم العصبيات القومية والعصبيات الدينية ، على وفق الخطة التى رسموها لتحطيم العصبيات لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا فى بلد يتعصب لقوميته أو لدينه ، فمن مصلحتهم تحطيم العصبيات ، وقد نجحوا فى إحلال التعصب للقومية ـ فى بلاد المسلمين ـ بدل العصبية الإسلامية ، فصار المبدأ فى بلاد الإسلام : أن كل مواطن فى بلد ، له الحق الذى لأى مواطن آخر ، مهما كان دينه أو تمسكه بدين الإسلام ، حتى لو ارتد عن الإسلام وفسق وشرب الخمر ، إلا فيما يحرمه القانون الوضعى ، فأصبح بهذا كل مسلم ـ فى دولة إسلامية ـ

أجنبيا ، بالنسبة لأية دولة إسلامية أخرى . كل ذلك عمل له اليهود : إما مباشرة ، وإما بواسطة إغراء الدول بالعالم الإسلامى .

وإذا نظرنا فى التاريخ ، وجدنا مثلا : أن احتلال الجزائر ، كان من اليهود ، وأن تحطيم الخلافة الإسلامية كان بيد اليهود ، فهم الذين عملوا على تحطيم الخلافة الإسلامية ، وكان منشأ المؤامرة يهود سلانيك ، وقد حدثنى المرحوم العلامة الشيخ زاهد الكوثرى – وهو أعظم عالم فى تركيا فى عصره ، جمع بين الفقه والحديث ، والأصول والتاريخ – : « إن الذى أقال السلطان عبد الحميد عن كرسى الخلافة ، ليسيطر من يعملون وراءهم على الخلافة ممن خدعوا باسم الحرية – كان ذلك الرجل يهوديا معروفا باسمه وعينه » .

وصرنا الآن دولا متفرقة ، متخالفة متخاذلة ، لا تجمعها كلمة الإسلام ، وكل يعمل فى دولته ارتجالا ، وليس لهم منهج إسلامى متفق عليه .

مع أن هذا المذهب الروحانى يعترف بأن من الأرواح من يكذب فى أخباره ، وعلى هذا فإن هذا المصدر الذى يكذب فيه بعضهم فى أخباره ، يعتبر غير مأمون ولا معصوم ..

أما عن هذه الأرواح : فإن أوربا التى هى منبع هذا المذهب الحديث ، وقدوة من اغتر به منا ، كانت قد كفرت بما وراء المادة فلما بدأت الجن يتصلون ببعضهم ، وثبت لدى هذا البعض أن هؤلاء المتصلين بهم من عالم آخر غير العالم المادى المعروف ، فسموه أرواحا : لأنهم يسمون ما عدا المادة : روحا .

والاتصال بالجن ، معروف فى المشرق والمغرب – وقد قال الله تعالى :

« وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »(١) . وانظر تفسيرها . وإذا كان لكل ابن آدم قرين : كما جاء فى الحديث الشريف عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكمْ من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة ... قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى : إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير »(٢) . فهذا القرين يعلم أفعال قرينه من الإنس ، ويخبر بها من يزعمون الاتصال بالأرواح ، كما أن بعض عالم الجن يتصلون ببعض الإنس ، ومثل هذه الأمور لا يعتمد عليها ، وقد قال الله تبارك وتعالى :

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »(٣) أ. هـ.

هذا ما كتبه فضيلة الشيخ محمد الحافظ .

ونذكر هنا فى هذا الموضوع واقعة لها مغزاها العميق حدثت سنة ١٩٦٤ م .

فى عام ١٩٦٤ كنت فى الحج ، وكان هناك بعثة لجمعية من أقوى جمعيات تحضير الأرواح ، سافرت – مستعدة بكل ما تستطيع – لتحضير الأرواح فى المسجد الحرام ، وتمكنت من الحصول على غرفة فى المسجد لتبيت فيها .

وبدأت بعد صلاة العشاء فى تحضير الأرواح ، واستمرت طيلة الليل فى مجهود مرهق ، وفى دأب متتابع ، فلم تستطع تحضير روح واحدة ، ولو كان

---

(١) سورة الجن : الآية ٦ .

(٢) رواه مسلم فى بدء الخلق ٢٨١٤. صحيح مسلم جـ ٤

(٣) سورة النساء : الآية ٥٩ .

ما يحضر إنما هو أرواح بني البشر من المسلمين العاديين ، أو من كبار الصالحين ، كما يزعمون ، لسارعت هذه الأرواح متنافسة ، فى الحضور إلى هذا المكان الطاهر ، الذى تهفو إليه الأفئدة ، وتتعلق به الأرواح .

وبعد انتهاء الحج ، سافرت البعثة إلى جدة ، لتذهب منها إلى المدينة المنورة ، وكان بالبعثة رجل قوى فى أكمل صحة وانضر حال ، وإذا به فى جدة يبدأ فى التقايؤ ، ثم يقىء دما ، ويستمر فى تقايؤ الدم إلى أن تنتهى منه الحياة .

وواصلت البعثة رحلتها إلى المدينة المنورة ، وفى المدينة المنورة بدأت عملها فى الحرم النبوى ، واستمرت طيلة الليل فى جهد مستمر ، وفى عمل لا يفتر .. ولم تحضر روح واحدة ، فكان ذلك دليلا واضحا ، على أن ما يحضر فى جلساتهم إنما هو جن وليس بأرواح .. ولا يتأتى أن يأتى الجن إلى أقدس الأمكنة : المسجد الحرام والمسجد النبوى ، متقمصا أو متلصصا .

وان فكرة الشيخ الحافظ : من أن اليهود من وراء ذلك للأسباب التى ذكرها – إنما هى الفكرة التى يؤمن بها الآن ، كل من يتتبع تاريخ فكرة تحضير الأرواح .

ولعل فى ذلك ما يجعل هؤلاء الذين يتخذون من تحضير الأرواح ، عقيدة تشغلهم عن دينهم ، وعن إسلامهم ، لعل فى ذلك ما يكفى لردهم عن باطل .

ونعود إلى موضوع الروح من جديد :

لقد دفعت صعوبة دراسة الموضوع ، بعض المفسرين للقرآن الكريم ، إلى أن يتجه فى تفسير قوله تعالى :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى »[1] .

إلى أن هذه الآية الكريمة إنما هى نهى عن البحث فى الروح ، وذلك أنه ما دامت الروح من أمر الله ، فهى – إذن – سر من الأسرار التى لا يمكن الكشف عنها ، وفسروا الروح بأنها الروح الإنسانية بمعناها العادى .

وعارض هؤلاء غيرهم ، وفسروا الروح بمعنى آخر .

ولقد ساهم أبو الحسن الشاذلى فى الموضوع ، وجاء فى تفسير الآية الكريمة برأى فيه أصالة وبراعة .

ولقد سبق أن كتبنا فى كتابنا « المدرسة الشاذلية » مبينين رأى أبى الحسن كما يلى :

يقول الله تعالى :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » .

هذه الآية الكريمة ، كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات : وذلك أن كثيرا من المفسرين ، رأوا أن الآية إنما هى نهى عن البحث فى الروح – بمعنى النفس الإنسانية لأنها من أمر الله ، فالله سبحانه – وهى من أمره – هو وحده العالم بها .

وعارض هؤلاء كثيرون : يرون أن الروح فى الآية الكريمة ، إنما هو القرآن الكريم ، بدليل سياق الآيات السابقة واللاحقة ، فإنها كلها فى القرآن الكريم ، والقرآن يسمى روحا ، كما أن جبريل عليه السلام يسمى روحا .

هل الآية نهى عن البحث فى الروح ؟ أم الروح فى الآية شىء آخر غير النفس الانسانية ؟

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

ولم يأخذ أبو الحسن بهذ الرأى أو بذاك ، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته ، وعمقه ودقته ، يقول رضى الله عنه :

« ومن ظن أن هذا العلم – أعنى علم الروح وغيره ، مما ذكر وما لم يذكر – لم يحط به الخاصة العليا (وهم) أهل البدء الأعلى – فقد وقع فى عظيمين :

جهل أولياء الله ، إذ وصفهم بالقصور عن ذلك .

وظن بربه أنه منعهم .. وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ذلك ؟ أى بعلم ذلك . وسرى به التكذيب إلى القدرة[1] والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب[2] ، كما تضمن الخلاف .

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » .

فما الدليل لك منهما على جهل الصديقين ، وأهل خاصة الله العليا ؟

والكشف عن هذا : أن السؤال – هنا – يقع بأربعة أحرف : بهل ، وكيف ، ولم ، ومن أين .

فهل : يقع بها السؤال عن الشىء ، أموجود هو أو معدوم ؟

وكيف : يقع بها السؤال عن حال الشىء ؟

ولم يقع بها السؤال عن العلة ؟

وليس فى الآية شىء من هذا ؛ فإنك إن قلت فيها معنى (هل) ، ومعنى (هل) ، يقتضى : هل الروح موجود أو معدوم ؟ وقد عرفوا وجوده من

(١) باعتقاد أنها لا تصلح لتعليم الخاصة علم الأرواح .

(٢) اتهم الشرع بمنع معرفة الخاصة (علم الروح) جريا وراء ما قاله اليهود والعرب الذين لم يكونوا تشرفوا بالإسلام .

قبل : ولولا ذلك لما قال : ويسألونك عن الروح ، فثبت أنهم عرفوا وجوده ، فبطل هذا .

وليس فيها سؤال عن الحال : كيف هو ، ولا سؤال عن العلة : لم كذا وكذا ، ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله :

« قل الروح من أمر ربى » .

ولشغبوا وترددوا ، وهذا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم[1] ، فثبت أن السؤال إنما كان عن الشيء : من أين هو ، بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافى بقوله :

« قل الروح من أمر ربى » .

إذ الرسول عالم بما سألوا عنه ، فأجاب عن الله بذلك ، كما تقول : آدم نسألك عنه ، وفهم المسئول السؤالى فقال : آدم من تراب ، فإذا رضى الجواب قنع ، وليس يرجع العدو ، إلا بفهم عظيم ، من الحق العظيم ، الذى لا مرد له ؛ فكيف يزعم الزاعم أنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف ، ولا يجوز أن يعرف ؟

فقد أوجب الله علينا معرفته تعالى – ولا مثل له – ، ولو ضيعناها لكنا كفارا ، أو عصاة ، فكيف بموجود مخلوق أمثاله كثيرة .. هذا عين الجهل أن يقال :

لا يجوز أن يعرف من له المثل والنظير وهو الروح ، ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير ، فنعوذ بالله من جهل الجاهلين ، وظلم الظالمين ..

والذى أقول به : إن لله أسرارا ، لا يسع فيها الرسم ، ولا يليق بها

(١) كانوا جدلين ، خصمين ، وكان المراء دينهم وشيمتهم وكان من شأنهم الشغب والتردى فيه .

الكم ، لا ترسم فى الدواوين لعمى البصائر ، وضعفاء النحائر ، ولا يليق بها الكم لوضوحها وشدة ظهورها ، فلا تعبآن بهم مع كثرة حججهم ، ولذ بالحق ، واخضع له فيما هم فيه يضطربون ، وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به ، فهم يعمهون .

وقد أمر الله سبحانه نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد .

وكأنه يقول : قد شاركتهم فى النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان ، والقلوب والأرواح ، فاقتد بهم فيما فيه الشركة ، وما خصصناك به ففينا وإلينا ، كذلك أيضا من فهم هذا السر ، دان لله مع عامة المؤمنين ، ومع أوساطهم ومع الأعلين . وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين .

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقراً الى الله ، وتواضعا لعباده ، واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين ؛ وإن كانوا ظالمين .. إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم » ا هـ .

عبد الحليم محمود

١

لقد ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه القصة . فما كنت لأجهل أنها ستقع موقع الدهشة من هؤلاء الذين اصطفيتهم لمودتى ، وأنها ، فوق ذلك ، لاترضى طائفة منهم . أجل ، وما كنت لأجهل ان ستكون هذه القصة مثارا للشك فى سلامة نيتى عند قوم ، وفى سلامة عقلى عند آخرين .

وفى الحق انى — أنا نفسى — لو لم أكن شاهدت الحوادث التى سأقص عليك نبأها ، والتى كان موقفى منها موقف الناقد ، الفاحص ، الشاك — لفكرت كما فكر القوم ، ولحكمت بما حكموا به . لقد كنت شاعرا شعورا واضحا بأن القصة عليها طابع الإغراق فى البعد عن الحقيقة والمنطق ، لذلك كتمتها ، و لم أنبس عنها ببنت شفة ، حتى لدى أخص أصدقائى . وإذا كنت اليوم قد عزمت أن أذيعها ، فذلك أنى لم أحكم لنفسى بأن لها حقا يبيح لها أن يكون موتى سببا فى فناء الشاهد الواحد الذى يشهد بحصول هذا الحلم الغريب . أما وقد شرعت فى تنفيذها مااعتزمت ، فإنى أطلب إلى هؤلاء الذين اتصلوا بى اتصال معرفة وخبرة ان يتذكروا — قبيل أن يطرحوا نظرية (جيمس) ظهريا — ما كنت عليه فى نفسى من حيطة ، وفى آرائى وأفكارى من تشدد . حقا إننى لست بدعا من الرجال ، فقد أتى على — كما أتى على كل رجل ساعات ضعف ، وساورتنى — كما ساورته — نزعات من عواطف

لكننى حاولت ألا أدع من ذلك شيئا يؤثر فى أحكامى ، وحاولت ألا أنظر إلى رغباتى بعين من يرى رغباته حقائق لايتطرق إليها الشك سواء أكان نظرى فى العلم ، أم فيما وراء الطبيعة ، أم فى السياسة ، بل كان هذا شأنى حتى فى حياتى العاطفية . وإذا كنت لم أنجح كل النجاح فى خطتى فلا أقل من أن تساعدنى هذه العناية بالمبالغة فى الحيطة والحذر على اكتساب الثقة فى الساعة التى أنا فيها شديد الحاجة إليها .

ومع ذلك ، فهذه الظواهر التى أصفها ، وإن كانت حقا مدهشة ، فإنها من نوع ليس من المتعذر القيام بتجربته لمن أراد ، بل إن بعض تجارب بسيطة ، من النوع الذى يسهل أن يقوم به أى فيزيقى أو بيولوجى أو طبيب ، يكفى لأن يظهر لك أن نظرية جيمس — حتى إذا افترض أنها لا تتمشى مع المنطق — مؤسسة على ملاحظات واقعية . فلم لم أتابع — أنا نفسى ، هذه التجارب ؟ .

ولم لم أنشرها على الملأ عقب موته ؟

لست أدرى !

وليس من السهل أن أعلل ذلك لنفسى !

وكل مايمكننى أن أقوله ، هو أن الخجل ربما يكون قد غلبنى فاضطرنى إلى هذا الامتناع .

يضاف إلى ذلك ماعندى من نفور طبيعى من الاشتغال ببعض موضوعات بعينها . لقد وجهتنى الظروف وجهة أدبية ، فأصبحت كاتبا لا عالما ، لذلك لم يكن لدى — كالعلماء — مستشفى أو معمل ، لى فيه متصرف . وترددت فى أن أتصل بقوم من العلماء لأوجه انتباههم لظواهر ، أعلم أنها لاتنسجم مع أسلوب تفكيرهم إذ كنت أعلم أنهم يعتبروننى غريبا عما يعنون به من

البحث ، وإذا كنت آسف لضعفى الذى دفعنى إلى التردد ، فما أشد سعادتى إذا أثار نشر هذه المذكرات ، رغبة بعض المخاطرين فى متابعة أثر صديقى البائس ، فى السعى للكشف عن عالم جديد .

عرفت الدكتور جيمس فى أثناء الحرب ، وكانت مقابلتنا أول مرة فى حقول الفلندر التى تعلوها الأوحال . فقد رأيته بين طائفة من الإنجليز ، امتلأت نفوسهم فرحا ، وبانت فى وجوههم علائم الصحة ، لكن جيمس من بينهم قد لفت نظرى إليه بخديه البارزين المعروقين ووجهه الذى تظهر فيه آثار موجات الألم ، وكان قد جاء حديثا إلى الفرقة التى كنت أقوم فيها بمهمة ضابط الاتصال الفرنسى ليكون طبيبا لها ، فما لبثنا أن ارتبطنا بأسباب المودة . وقد احتفظت له ، على ما كان يسود الزمان والمكان إذ ذاك من فزع ، بذكريات تكاد تكون سارة ، ذكريات للشهور التى قضيتها معه فى نتوء أيبر ، إذ كنا نقيم معا فى خيمة واحدة ، خيمة ننام فيها على أسرة الجيش ، وكان بين سريرينا صندوق بسكويت نستعمله مائدة ، ومكتبة ، حتى إذا ما أقبل الليل ، وأرقنا صفير القذائف التى تمشى فوق رءوسنا متجهة صوب بوبيرنج ، واضطراب جوانب الخيمة المبتلة ، كلما خفق الهواء كنا نأخذ فى الحديث بصوت خافت نتذاكر أخبار الشعراء والمجانين ..

كنت أحب زميلى ، فإنه – رغم مظهره الذى يدل على عدم المبالاة بشىء- كان يخفى قلبا رقيقا ، وشعورا حيا . وكان شديد الانطواء على نفسه ، فلا يتحدث عن خصوصياته ، حتى أنى على طول ماعاشرته ، وشدة ماخالطته لم أعرف من حديثه أكان له زوجة وأطفال أم لم يكن . وما أن أعلنت الهدنة حتى افترقنا فجأة ، كما افترق كثيرون غيرنا ، وقد قامت الكتب طوال العام التالى للهدنة مقام اللقاء ، وعرفت عن هذا الطريق أن جيمس يعمل بمستشفى

بلندن ، ثم أهمل أحدنا (ولست أدرى الآن أينا) الإجابة على خطاب الآخر ، وانقطعت الرسائل ، فأصبح جيمس - بمر الزمن - صورة مختلطة بذكرياتى ، لكنها لاتعدو أن تكون خيالية كأنها شخصية بطل من أبطال القصص . وأخيرا لم يعد يخطر لى حتى .. فى الحلم ، واستمر ذلك إلى ربيع سنة ١٩٢٣ ففى هذا العام اضطرنى البحث فى المتحف البريطانى إلى الإقامة بلندن مدة طويلة . وقد طال بى العمل ، فشعرت بالتعب ، والوحدة ، والضيق . وفى ذات صباح ، وقد أشرقت الشمس زاهية وضاءة ، لم أجد من نفسى شجاعة على العمل بالمتحف ، فنظرت فترة من الزمن إلى الحمام ، وقد كان يشبه حمام سان مارك . وهو آلف نافر فى أروقة المتحف المقامة على النسق اليونانى ، واسترسلت فى الأحلام ، وشعرت بأن الوحدة ، وإن كانت لمدة قصيرة ، بين الفينة والفينة ، ضرورية للصحة فإنها تصبح إذا طالت مدتها ، ثقيلة على النفس لايطاق احتمالها ، لم استكن أو استسلم إلى الوحدة مع أن لى أصدقاء من الانجليز ؟ ألا يحسن أن أقضى وقت المساء مع إنسان ذكى كالدكتور جيمس ؟ لقد أنسيت عنوانه . ومع ذلك فليس من المتعذر معرفة عنوان طبيب ، فدخلت قاعة المطالعة الكبرى وهناك بحثت فى الدليل السنوى لأسماء وعناوين الأطباء فوجدت أن : هـ . ب . جيمس طبيب مقيم بمستشفى سان برنابيه . فعزمت ، ألا اشتغل فى هذا الصباح المشمس ، وأن أذهب للبحث عن صديقى .

كان مستشفى سان برنابيه مقاما على شاطىء التاميز الأيمن ، فى الحى الشعبى ، الذى يمتد إلى ما بعد بلاك فرباس بريدج ، وكنت كلما عبرت النهر عند هذا المكان ثار فى نفسى شعور غريب قوى ، ففيه يفصل نهر التاميز بين عالمين ، وفيه يترك الإنسان وراءه لندن المطبوعة بطابع العصور الوسطى وعصر النهضة فى فنها وعمارتها ، لندن ذات المتنزهات التى تشبه رقع الشطرنج والأرصفة المزدانة بالأشجار أمام الفنادق الكبيرة ، والنهر يصبغه ما ينعكس عليه

من حمرة العربات — ليستقبل مدينة كلها مصانع ، ومخازن وحيطان عارية عن الفن ، ومداخن مربعة . وفى ذلك الصباح ظهرت شدة التعارض بين الجانبين ، عند عبور الجسر ، بسبب غيم حجب الشمس فجأة . وفى هذا الضوء العاصفى الخافت وصلت إلى الشاطىء المغطى بالأوحال حيث يحمل الرجال أكياساً من الجبس على سفن راسية كأنها مهملة . أما الشارع الكبير المقابل للجسر فكانت العربات الكهربائية والبخارية فيه ، تسير فى جلبة وضوضاء وعلى رصيفه سوق متواضعة تسمع لها دويا خافتا . هذه المظاهر المتباينة توحى إلى الإنسان أنه انتقل إلى أرض شعب آخر .

أرشدنى أحد رجال الشرطة إلى طريق مستشفى القديس برنابيه ، وكان المستشفى ، على شاطىء النهر ، يبدو كالملجأ ، بين منازل حقيرة ومخازن لا يتخلل حيطانها نوافذ . أما مبنى هذا المستشفى فإنه لا يمتاز عن أغلب مبانى لندن فى كونه يشبه — فى نقشه — هذه المبانى ذات النقش الرومنتيكى حيث ترى خطوطا بيضاء طويلة توضح سواد الظلال ، وقد انتشرت البقعه الصغيرة ذات الشكل المزدهر البراق ، فكانت تبعث فيه شيئاً من الحياة ، فمن خضرة العشب ، إلى زرقة ثوب تخطر فيه مرصعة ، إلى حمرة ثياب ثلاثة أشخاص فى دور النقاهة يخطون أولى الخطوات بعد ملازمة طويلة للفراش . وفى أعلى مدخل المستشفى ترى قطعة من القماش قد علقت وكتب عليها :

« إن مستشفى القديس برنابيه يستمد حياته من الهدايا ، والصدقات ، وأنه يعوزه الآن ثلاثون ألف جنيه » .

فدخلت المستشفى وسألت البواب عن الدكتور هـ .ب . جيمس .

— الدكتور جميس ؟ .. ربما تجده فى هذه الساعة فى دار الأطباء المقيمين بالمستشفى .. اعبر الطريق تحت القوس التذكارى ، ثم اتجه شمالاً

ولما سرت حسب إرشاده ، وجدت بيتا منفردا ، بنى أيضا بالمستشفى بالحجر الأبيض الذى اسود لونه من أثر الدخان ، ولكنه مغطى بالكروم البرية واللبلاب . وفى أسفل السلم لوح كتب عليه أسماء الأطباء ، كل اسم منها متبوع بكلمة « موجود » أو « غائب » وعلى رأس القائمة قرأت : الدكتور جيمس . الطابق الأول غرفة نمرة ٢١ . داخلى . فصعدت ومالبثت أن وجدت اسم صديقى مكتوبا على لوحة صغيرة من الخشب معلقة على الباب ، ففاجأنى إحساس بقلق ، وساورنى شيء من التردد . أيسر جيمس برؤيتى بعد هذا النسيان الطويل ؟ أم سأشعر – بعد التحية والاستقبال – بالوحدة بين هذا الركام القاتم من المداخن والأكواخ ؟ . وأخيرا قرعت الباب ، ووضعت يدى فى حركة لاشعورية على قبضته فلم تدر ، إذ كان الباب مغلقا من داخل القاعة ، وسمعت صوتا له صرير يشبه ماتثيره الريح من صوت عند مرورها بالحديد الصدىء ، سمعت ذلك الصوت الذى أعرفه تماما ، يقول فى نغمة تبدو كأنها خانقة :

انتظر قليلا من فضلك .

ساد السكون .. فسمعت خطى تسرع ، وصوت حلقات تنزلق آثاره سحب ستار بسرعة ، وصرخة تشبه صرخة حيوان صغير قد لدغ ، أو صدم بدون تعمد ، ثم رنين زجاج اصطدم بعضه ببعض . ثم صوت الماء وهو يسيل فى الحوض على مهل فيضجر السامع . أمام هذا الباب وقفت انتظر ! انتظر وقد استولى على إحساس مبهم بعدم الرضى . ليت شعرى ماذا يصنع جيمس !

أيمكن أن أكون قطعت عليه الاستمرار فى عملية جراحية يقوم بها أم شغلته عن تضميد . أم قطعت عليه اختبارا ؟ . لا أعتقد ذلك فجيمس ليس بجراح . و لم تجر العادة بأن يأتى الطبيب بمريض إلى حجرته . أيجوز أن يكون من عادته

ألا يبكر فى الهبوب من نومه بعد تأدية عمله فى أثناء الليل ؟ إذاً هل أكون قد أيقظته ؟ . وأخيرا لم أعد أسمع صوت سيلان الماء ، وسمعت وقع أقدام تتجه نحوى ، ودارت قبضة الباب فى يدى ، ورأيت رأس الدكتور بعد أن فتح الباب قليلا فإذا به قد أصبح أشد نحافة مما عهدته عليه فى أثناء الحرب ، وألفيت عينيه الغائرتين يجول فيهما لمعان حائر يبدو كأنه يلوح من تحت غطاء ، ومما أدهشنى ، وبعث فى نفسى الألم ، أنى رأيت عينيه تعبران عن نوع من القسوة لم أعرفه فيه من قبل . لقد تردد قبل أن يختار من بين ذكرياته صورة تنطبق على هذا الزائر الذى لم يكن قدومه فى الحسبان ، ثم ابتسم ، وفتح الباب على مصراعيه . فرأيته مرتديا رداء أبيض ورحب بى قائلا :

ماذ عساك تفعل فى انجلترا ؟ ما كنت أتخيل قط أن أراك اليوم أيها الصديق . كانت الحجرة خفيفة الأثاث ، كان أثاثها مؤلفا من سرير يشبه أسرة الجند ، وكرسيين عاديين ، وكرسى كبير مكسو بالجلد ، ورفوف بعضها فوق بعض صف على قسم منها كتب ، وأخفى القسم الآخر ستار من القماش الأخضر لاشك فى أنها — هى بعينها الستار التى سمعت حلقاتها تنزلق منذ هنيهة ، وكان فى أحد أركان الغرفة حوض مملوء بالماء الممزوج بالصابون ، وعلى المدفأة عدة صور لسيدة فى سن الشباب ، ومالبث جيمس حتى قدم إلى الكرسى الكبير ، وعلبة من سجاير . لكنه أخذ ينظر حوله قلقا مضطربا حتى لقد تصورت احتمال وجود شخص ثالث بالحجرة ، ثم رأيته يجاهد نفسه على أن يظهر أنه يحدثنى فى ألفة ، ويحملها على ذلك حملا ، فبدت عليه هيئة شخص فوجىء أثناء قيامه بأمر مريب ، فتكلف السهولة فى الكلام وقال :

يالك من صديق ! لقد أهملتنى كلية منذ أن صرت مؤرخا .. ومع أنك لم ترسل لى بكتابك الأخير فإنى قد قرأته .. إنه لكتاب قيم .. وما كنت لأعتقد

أن فى إمكانك أن تصنف مثله .. لكن دعنا من حديث الكتب وحدثنى عما تصنع .

لقد وصلت إلى مكانه وأنا مغتبط بأنى سأجدد رؤية لشخص أحببته كثيرا وأسعدنى ببعض الآراء والأفكار التى أقدرها ، وأنعم بها ، ومع ذلك فإننى منذ جلست إليه ، فى حجرته ، وأنا أشعر بضيق ينغص كل لذة برؤيته وأدركت أن ليس بينى وبين جيمس اتصال ، ولاشىء يقال . لقد تعارفنا على أننا أعضاء فى جماعة وقد انتهى أمرها منذ زمن بعيد ، فلم يبق شىء مما كان بيننا سنة ١٩١٨، من الصلة الروحية ، نعم لقد زال ماكان يربطنا من الشعور بشدة القلق لجهلنا بنتيجة الحرب وزال ماكنا نجمع عليه من ازدرائنا للأكاذيب الحربية . وانتهت دواعى عاطفتنا المشتركة نحو أصدقائنا الجرحى . كل هذه النواحى ، التى كانت تشركنا فى حالة واحدة ، زالت كما زالت الخلايا السطحية التى كانت تكون – إذ ذاك – مظهرنا الجسمى . وها هو ذا الشخص الذى يسكن فى هذه الغرفة ، والذى يسمى جيمس ، قد أصبح بالنسبة لى غريبا كأى شخص لقيته عرضا ، فى بيكادللى . وخيل إلى أن السبيل الوحيد لبعث ما فى نفسه من مناح عميقة ثابتة هو أن أعترف له بخيبة الأمل فى هذا اللقاء . فقلت له :

إننى الآن أشعر بشعور غريب ! أتذكر ليلة من ليالى أيبر شرحت لى فيها ، انقسام الشخصية عند المجانين ؟

اننى أشعر الآن بشعور مماثل .. لقد حضرت عندك لأبحث عن شىء لم يعد له وجود ، وها أنا ذا أتمنى عبثا ، فترة الجنون التى تسمح لى أن أكون مسرورا برؤيتك .. إن جملة كهذه كانت تكفى لأن تبعث جيمس ، الذى عرفته سابقا ، للأخذ فى محاضرة علمية مرحة ، لكنه هز كتفيه فى إعياء وملل ،

وأشعل سيجارة ، وترك جسمه يهبط على أحد الكراسى ، ثم نظر حوله مرة أخرى فى قلق واضطراب . وتنهد قائلا :

آه .. لقد انقطعت منذ زمن طويل عن الاهتمام بانقسام الشخصيات وغيرها إنى أعالج الآن المرضى بالسرطان وبالقلب ، وبالرئة .. ومرفأ لندن يبعث لى أحيانا بعض البحارة من مواطنيك ...

فى هذه الآونة سمعت ، من وراء الستار ، صوتا لاينساه قط كل من سمعه ، وهو الصوت الحاد السريع الذى تحدثه الفيران بأظافرها الصلبة عند عدوها . فتخيلت فجأة مخبأ فى خندق من خنادق السكك الحديدية كنت أشارك فيه جيمس فقلت له مسرورا :

ماذا .. أعندكم فيران ؟ إن ذلك يذكرنا بكثير من ماضينا المشترك . فقام وهو يلوح عليه شىء من العبوس قائلا :

فيران ؟ أتظن وجود فيران فى مستشفى ؟ .. إنك واهم ياصاح .. إنى آسف لعدم إمكاننا البقاء هنا ، لنذهب إذن ، فقد حانت الساعة التى أمر فيها بمرضاى .. أتريد أن ترافقنى ؟ ربما شاقك هذا .

ولكنى كنت إذ ذاك قد بلغ بى ضيق الصدر الغاية فقلت : أواثق أنت من أن وجودى لايسبب لك اضطرابا ؟ إن من السهل أن أعود فى فترة أخرى .

فأجاب فى صوت سمح متهكم معا : كلا .. كلا .. إنك لاتسبب لى اضطرابا الآن ..

ثم توجه مسرعا نحو الحوض واغترف منه غرفة من الماء الممزوج بالصابون فمسح به بقعة حمراء كانت على حافته .

٢

إذا كانت المستشفيات تبدو فى مظهر قاتم يقبض ، فإن مستشفى القديس برنابيه من أقلها ظهورا فى مثل هذا المظهر . فأرضه مرصوفة بالبلاط الأبيض والأسود ، وأسرته الحمراء مغطاة فى نظام ، ونوافذه محلاة بالأزهار . وإذا ماسرحت الطرف ، يمينا أو شمالا

رأيت الممرضات فى أثوابهن الزرقاء ويكدن يكن جميعا ممن امتزن بالجمال والوداعة ، فهن فى دائرة المرض والبؤس هذه يظهران كالواحات الناضرة تبعث الأمل ، وتحيى الرجاء ، وتنعش الأنفس . وكل إيوان له رئيسة ، وهى ممرضة تمتاز بزنار أزرق قاتم . ولما دخلنا الإيوان سأل جيمس الرئيسة :

-أليس من جديد ؟ فأجابت : هل لك يادكتور فى رؤية المريض رقم ٢١٦ .. ان الحالة لاتزال على ماهى عليه من الشدة . فاقترب من سريره ونظر فى المذكرة التى تسجل فيها حالته المرضية وأخذ يجهد نفسه ليتذكر أحوال تسلسل المرض ، ثم أشار بتغيير العلاج فى نغمة عليها طابع الحزن والتعب . أما فى أواوين النساء فقد دهشت لما أظهره من عدم المبالاة ، وقد كنت على العكس منه ، يبعث فى نفسى دائما منظر المرأة المريضة (وعلى الأخص إذا كانت فتاة ظريفة) شفقة حارة لعل لها صلة بالناحية الجنسية . حقا إن الطبيب حينما يدخل هذه الأواوين لايجد مايجده الغريب مثلى من شعور فيه لذة ، وفيه

ألم ، حين يقع بصره على خصوصيات المريضات ، ورقتهن الحنون ، ومع ذلك فقد أدهشني من صديقي أنه لايشعر بدلال المحتضرات . وبينا نسير إذا بفتاة اشتد شحوبها ، يغطيها شعر طويل مرسل ، تحاول أن تبتسم إلينا ، ثم مالبثت أن سقطت على سريرها من الإعياء .

فقلت لجيمس : مسكينة تلك الفتاة !

فأجاب : أين ؟ آه رقم ٣١٨ .. تلك قد حان حينها . أما فى الرجال فقد جلس كثير من المرضى جماعات ، تحلقت حول الأسرة ، أو المناضد التى علتها أصص الأزهار . قد كان يومئذ الإضراب قائما على ساق بين العمال فى الميناء ، فكان كثير من المرضى ـ وليس بهم غير جروح خفيفة ـ يتجادلون فى السياسة والدين فى لهجة جديدة تشبه لهجة الوعاظ فى هايد بارك . وبينا نسير رأيت عينى جيمس تسيلان رقة إذ وقع بصره على فتى حسن الوجه فى الخامسة عشرة من عمره ، ثم خاطبه قائلا :

آه .. سونى ؟ .. ألم يعد ينتابك الدوار ؟ ستخرج من المستشفى غدا .. ثم نظر إلى الممرضة وسألها : أليس من جديد ؟ — لا أعتقد أن الـ ٤١٣ يستمر على قيد الحياة إلى الليلة القادمة إذ لم يعد يستطيع أن يفتح عينيه .

فذهب جيمس نحو سرير فى ركن من أركان الإيوان حيث يرقد رجل عجوز انخسف خداه المعروقان وجانبا أنفه ، حتى لتخال تلك المواضع قد غارت فى جسمه ، كان تنفسه سريعا ، وقد طالت لحيته الشقراء التى وخطها الشيب إذ كان آخر عهدها بالحلق يرجع إلى أيام عدة . فجس جيمس نبضه فلم يشعر المريض ولم يأت بحركة فالتفت جيمس إلى الممرضة ، وقد دب فيه نشاط فجائى وقال : إنك على حق .. لقد أوشك أن يفارق الحياة .. وسأنبىء

جريجورى بذلك فلا تهتمى له .. ومع ذا فسأحضر لرؤيته فى أثناء النهار . أعطيه قليلا من الزيت الممزوج بالكافور .. فبذلك تمتد حياته إلى المساء

دهشت لهذا الأمر الذى جد على صديقى ، فقد تغير حاله من خمود إلى اهتمام ، ومن اكتراث إلى نشاط . وبش فى وجهى قائلا :

ينبغى أن أذهب الى الـPast Mortem clerk فرافقنى ، فإن ذلك مما تحلو لك رؤيته .

فقلت له : ماهو ذا الـ Past Mortem Clerk

أنسيت اللاتينى ؟ .. ألا تعلم ان الـ Past Mortem clerk يدل دلالة لفظية على المساعد المكلف بحفظ الجثة بعد الموت للتشريح .. ومساعدنا هنا شخص قصير غريب يسمى جريجورى .

نزلنا ثلاثة سلالم . ثم دفع جيمس بابا ثقيلا به كثير من قضبان الحديد لإحكام غلقه ، ودخلنا مدرجا به نحو عشرين مجلسا ، وكانت حيطانه البيضاء ذات جدران مطلية بطلاء لامع صقيل ، وقد صف فى وسطه أربع مناضد للتشريح . أما هواء المكان فقد كان مفعما برائحة كريهة لحامض خاص بالتحنيط . وبينا نحن كذلك إذا بشخص قصير يظهر فجاة كانما هو شيطان قد نجم وسط المدرج ، فأخذتنى الرعدة ، وكرهت منظر الرجل منذ النظرة الأولى . ومع ذلك فقد كان مظهره عاديا . أما شارباه فمدهونان مفتولان يتجه طرفاهما نحو منظاره الذهبى ، وكنت حين حدثنى جيمس عن هذا المكلف بحفظ الجثث قد تخيلت - ولست أدرى لماذا - جلادا على نسق ماتصف الروايات . ارتباط هذه الصورة صورة جريجورى العامية ، التجارية ، مع فكرة الموت بعث فى نفسى النفور . وقال الدكتور :

واحدة .. أجعل ساق الواحدة موازيا لرأس الأخرى .. إنى أؤكد لك أنه عمل مرهق .. كلا ، كلا . لا تخرج من تلك الجهة يا سيدى . إنك لم تر بعد أجمل ما عندنا .

ثم توجه نحو الباب الحديدى المثبت بالحديد اللامع . وكان على هذا الباب بطاقة كتب عليها « الأستاذ سيمبسون يريد قلوبا سليمة ، يجب أن تراعى العناية التامة » .

ثم فتح الباب رويدا رويدا وكان له صرير ، فشعرت عند فتحه ببرد قارس مميت . وأحسب أن وجهى حينئذ بدا شاحبا : ذلك لأن جيمس أخذ بذراعى وجعل يمد عينيه إلى وجهى . ثم نزلنا بضع درجات فإذا بنا فى كهف حيطانه من آجر . وفى وسط هذه الحجرة الباردة توجد آلة من حديد تشبه تنور الخباز ، أو مرجلا ضخما ، وإذا أردت الدقة ، فإنها تشبه القالب الذى تصب فيه الحلوى إذا كبر حجمه أضعافا مضاعفة . فإن قضبانا طويلة من الحديد كانت تخرج من تلك الآلة . فنظر إلى جريجورى وغمز بعينه كأنه موشك أن يقدم لى أبدع هدية فى العالم . ثم فتح بابين فى خفة وسرعة تدهش ، وسحب أحد القضبان ، فكدت أصيح : ذلك أنه جذب لوحا طويلا ودفع به حتى صار بيننا . وكان عليه امرأة عارية .

لقد كانت تلك المتوفاة جميلة حقا ! وإن أنس لا أنسى ماحييت الجسم الناصع البياض نصوعا لم نعتد رؤية مثله تعلوه نقطتان ورديتان شاحبتان ، هما حلمتا الثديين . وكانت عيناها مطبقتى الأجفان ، وعلى فمها الساحر ابتسامة حزينة مترفعة . يا للعجب ! أيصدق الإنسان أن سيدة مثل هذه تموت فى مثل هذه المستشفى ! كم كان يود الإنسان أن يعرفها ، وأن يخفف عنها ، وأن يعينها .. ؟!

كان جيمس وجريجورى قد وقفا جامدين يمدان بصرهما إلى .

ثم قال جريجورى : أتعرفها يا دكتور ؟ إنها الفتاة الروسية .. ونحن ننتظر

أن تطلبها أسرتها .. ومالبث جريجورى أن رفع القضيب بحركة عنيفة ملقيا اللوح والجثة فى الآلة الحديدية السوداء . ثم قال فخورا : يمكننا أن نحتفظ بتلك الجثث هنا فى البرد إلى الأبد .. أتريد أن ترى رجلا ؟

ـــ كلا .. أشكرك . أريد أن أخرج . أخذ جميس بذراعى فى مودة ورفق قائلا :

سأقودك إلى حجرتى حيث أعطيك كوبا من البورتو إن لونك جد شاحب .. نحن إذن يا جريجورى على اتفاق فيما يتعلق بهذا المساء ؟ فى تلك اللحظة سمع فى المدرج صوت جرس يدق : تن ، تن .. تن ، تن ، تن ، تن ، فقال جريجورى :

اثنان ثم أربعة هذه الدقة نداء لك يا دكتور . فقال لى جيمس : معذرة سأتركك لحظة .. كل طبيب منا له نمط خاص من الدق فإذا دق الجرس مرتين. ثم أربع فذلك نداء لى .. وفى كل إيوان ، بل وفى كل حجرة ، جرس مثل هذا .. يكفينى الآن أن اسأل – بواسطة التليفون – المركز ، لأعرف أين يحتاجون إلى .. أيمكنك أن تنتظرنى هنا ؟ .

إنى أفضل أن أراك فى مكان آخر .. اتريد أن تتناول العشاء معى هذا المساء ؟ إنى أنزل فى فندق صغير فى وسط لندن . فأجاب فى صوت خافت كأنه يحلم :

هذا المساء .. هذا المساء .. نعم ، ليس ذلك من المستحيل .. سأطلب إلى أحد زملائى أن يشغل مكانى . إنى أرغب أيضا أن أتحدث معك .. غير أنه يجب ـــ كما تعلم ـــ أن أكون هنا الساعة العاشرة ، فإذا أردت تناول العشاء مبكرا ، حوالى الساعة السابعة مثلا ، فلا مانع عندى .

سأنتظرك .. فى فندق جونسن .. ودق الجرس ثانية مرتين ثم أربعا .

٣

لو أتيح لك أن ترى صاحب فندق جونسن لرأيت شخصا يفتخر بأنه لم يصطنع وسائل التدفئة الحديثة ، بل ولا الإضاءة بالكهرباء ، ولرأيته ، بدلا من ذلك ــ أقام موقدا كبيرا فى فناء الفندق ، وزين حجرة الطعام بالمسارح الفضية التى تتلألأ بها .

أما خدم الفندق فإنهم يمتازون بالهدوء ، وباحترامهم للمسافرين ، ثم إنهم ، على نقيض كثير من خدم الفنادق ، لا يميزون المسافر برقم حجرته ، وإنما المسافر بالنسبة إليهم إنسان له شخصيته وله مميزاته . فى هذا الفندق حجرة صغيرة خاصة معدة للطعام ، كنت أحب منظر ألواحها التى تزين الجدران ، فهى مصنوعة من خشب البلوط الناصع ، وقد طلبت من كبير الطهاة أن يقدم لى فيها العشاء ، ولما دخلتها حوالى الساعة السابعة مساء غمرتنى موجة من الشعور بالألفة حتى لكأننى فى حجرتى الخاصة ، وكان فى وسط هذه الغرفة منضدة من خشب الطابلى عليها أزهار النسرين يتخللها ضوء الشموع الوديع ، وبينا أنا أنعم ببساطة هذا المكان وهدوئه إذ وصل جيمس فرأيت أنه هو أيضا قد شعر بما شعرت به من سحر البساطة الظاهرة فى كل ما تتحلى به حجرة طعامنا ، ولقد عبر عن هذا الشعور وهو واقف أمام الموقد مادا يده للتدفئة قائلا :
حقا إن الفرنسى وحده هو الذى يمكنه أن يكتشف ــ وسط لندن ــ

الامكنة التى تحمل الطابع الإنجليزى القديم ، إنك جد موفق يا صديقى فى اختيار المكان ، فقد كنت فى امس الحاجة إلى الراحة .. ليست مهمتى اختيار المرضى الجدد ، ولكن كثرة المرضى الهائلة يوم الاثنين تجعلنى أسعى لمساعدة زملائى كلما وجدت إلى ذلك سبيلا .

ــ و لم كان عدد المرضى كثيرا يوم الاثنين ؟

ــ إنه ليسهل إدراك السر فى هذا ... ذلك لأن جابى الإيجار فى أحيائنا الفقيرة يمر بها يوم الاثنين ليجبى إيجار الإسبوع ، فتتخذ النساء الوسائل حتى لا تكون فى المنزل يوم حضوره ، ومن التعلات المستساغة أن يذهبن بأطفالهن إلى المستشفى . يجب أن تجيء يوما لترى هذا ، إنه مدهش . إن بعض النساء يتركن أطفالهن ، ويذهبن إلى الحانة المقابلة يتجرعن الجعة ، ويمكثن ثمة إلى أن ينتهى الاختبار الطبى . اتصدق أنهن يهملن صغارهن ويتركنهم على هذا الحال إلى أن نرسل فى البحث عنهن لتتعرف كل أم على طفلها ، فيأتين لا يكدن يحملن رؤسهن من أثر السكر من الجعة ؟ . ذاك ، و لم أبالغ ، هو ما يحدث يوم الاثنين ، أضف إلى هذا حوادث يوم الأحد وما ينشأ عن المشاجرات ، ثم ما اعتنى به يوميا من المرضى ، كل ذلك يصور لك صورة تمثل مايجب ان نتحمله يوم الأحد من مشاق .

ـ هيا بنا نتناول الطعام ، سيدى الدكتور ، وسنحاول أن ننسيك المستشفى ، أتذكر نبيذ بورجونيا الذى كنا نشربه فى أميان ، لقد طلبت لك منه .

أخذت الذكريات الحربية تشغلنا أثناء تناول الحساء وبعدها استولت على جميس نوبة من صمت عميق نوبة من ذلك النوع الذى كان ينتهى عادة ــ

وذلك مما حببه إلى — بحديث مبتدع عليه طابع الغرابة . وفجأة قال :

— هناك سؤال لم أوجهه إليك قط حتى فى الفقرات التى كان بعد توجيهه فيها طبيعيا .. أتعتقد بخلود الروح ؟

عند هذا السؤال المفاجىء اعترانى قليل من الدهشة غير أن نفسى اطمأنت ، فقد وجدت صديقى القديم جيمس ، ففكرت هنيهة ثم قلت : ياله من سؤال ! إنك تعلم ، أو بعبارة أدق ، كنت تعلم موقفى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة . يخيل إلى أنى ألمح من خلال هذا العالم أثرا لخطة محدودة ، ولنظام معين ، وإذا شئت ، فإن هذا العالم لا يخلو من ظل عناية إلهية ..

غير أن هذه الخطة التى يسير بحسبها العالم ، ليست بواضحة على ما يبدو لى — أمام العقلية الإنسانية . ليس لدى إذا من المذاهب الفلسفية المتوارثة ما يساعدنى على إجابتك ، وكل ما يمكننى أن أقوله فى إخلاص ، هو أننى لم ألاحظ للآن أية علامة محسوسة تدل على خلود الروح بعد الموت ، ولكن من التهور أن يؤكد الإنسان أن الروح تنتهى بانتهاء الجسم .

قال جيمس فى شىء من الضيق :

— إنك جد متحفظ ياصديقى فمن المستحيل ألا يظهر لك أن أحد الفرضين أرجح من الآخر ... هل تسير فى حياتك كما لو كنت تعتقد بحياة أخرى أم لا ؟

— إنى من غير ماشك أسير فى حياتى كما لو كنت لا أعتقد بيوم الحساب ، لكن هذا لا يبرهن على أنى متأكد من عدم خلود الروح ، وإنما يدل على أننى لا أعتقد بقوة إله خالق .. ولو تركت لى فسحة من الزمن أفكر فيها فإنى سأجد — على ما يظهر — الأدلة التى تعضد الفرض القائل بفناء الروح مع

فناء الجسم ، تفكير يكون بغير جسم ؟ ألا ترى أن ذلك لا يمكن للإنسان إدراكه ؟

إن تفكيرنا لا يخرج عن أن يكون نسيجا من الصور .. والمحسات .. وهذه المحسات تنقطع بانقطاع الحواس ، ونشأة الصور تتوقف على وجود جهاز عصبى .. إنك تعلم أكثر منى أن إتلاف بعض خلايا المخ يحدث تغييرا فى الشخصية بل يصل إلى إزالتها .. ولقد أرشدتنى — أنت نفسك ، إلى أن وجود البكتريا ، أو الحقن ببعض الإفرازات الغددية ، يغير تفكير الإنسان ، كل ذلك يبين فى وضوح العلاقة بين الدعامة الجسمية التى يرتكز عليها التفكير ، والتفكير نفسه . ثم أنسيت حالات الإغماء ؟

أتذكر يا دكتور تلك الحادثة التى سقطت فيها تحت فرس فى إقليم الفلاندر ، حيث وجدتنى أنت على العشب فى حالة إغماء ؟ لقد مكثت هناك ساعتين ، ولكننى لا أذكر شيئا مما مر بى فيهما .. ويظهر من هذا أن روحى لم تكن على قيد الحياة بعد أن صعق جسمى .

فقال الدكتور بصوت ساخر له صرير :

— إن ما تستدل به — فيما يبدو لى — ضعيف حقا إنك تفقد شخصيتك فى حالة الإغماء فترة من الزمن ، وذلك ما لا أريد مخالفتك فيه (ومع ذلك فمجال الاختلاف فيه متسع ، إذ إن كثيرا ممن تجرى عليهم العمليات ، حينما يستيقظون من حالات الإغماء أو التخدير بالبنج ، يتذكرون بعض مامر بهم من صور غريبة ، ويصفون فى بعض الأحوال شعورهم بروح طليقة) ولكن الزعم بأن شخصيتنا قد اندثرت ينقضه استيقاظك نفسه من الغيبوبة ، فأنت حينما استيقظت ، بعد سقوطك من فوق الحصان ، لم تكن شخصا آخر

ولكننك كنت الشخص الذى كان موجودا قبل أن يقع من فوق جواده . فإذا برهنت تلك الحادثة على شيء فإنما تبرهن على أن شخصيتك بقيت وإن يكن جسمك — فيما يبدو — قد تخلى عنها . ويمكننا أن نذهب مع الخيال إلى أبعد من هذا فى تلك المسألة . هب أن القلب وقف عن النبض ، وأن الرئتين توقفتا عن التنفس ، ألا يقول الأطباء : إن المريض قد مات .. حسن .. لنفرض أن وسيلة اكتشفت — يستبعد هذا الاكتشاف — لإعادة الدورة الدموية إلى الرأس باستخدام دم جديد ، ألا يبعث الميت من مرقده ؟

— لست أدرى .. هذا ممكن ..

— فإذا عاد إلى الحياة من جديد ، فهل يعود بشخصيته القديمة نفسها ، أو يتقمص شخصية أخرى ؟

إنه يعود بشخصيته القديمة طبعا .

إنك تعبر عن رأيى .. ولكن من أين تأتى تلك الشخصية .. أترى أنها قد تكونت فجأة ، فى هذا الجسم الذى ردت إليه الحياة ، مع كل ما تشتمل عليه من ذكريات لا تحصى ، ونزعات ، وعواطف جامحة أو هادئة ؟

إذا كان الأمر كذلك فأين ذهبت الروح التى كانت تحل فى هذا الجسم قبل أن تفارقه الحياة ؟ .. أما إذا كانت الروح التى عادت إلى الجسم مع عودة الحياة إليه هى نفسها التى كانت قائمة به قبل أن تفارقه الحياة ، .. فإن هذا اعتراف لا لبس فيه بأنها لم تكن قد فنيت بموت الجسم ..

— لماذا يا دكتور ؟ .. ما دامت ذكرياتنا مرتبطة بتكوين خاص بالمخ ، وما دام هذا التكوين لم يتغير ، فإن الذكريات تعود متماثلة ، ولكى أعطيك مثالا — وإن كان غير مهذب إلا أنه يوضح رأيى بعض التوضيح — أقول إن ما نحن

بصدده يشبه قول القائل « إن الوزارة خالية من موظفيها ليلا ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك فحينما يعود إليها موظفوها فى الصباح فإنهم سيستمرون فى القيام بنفس العمل . للوزارة إذن روح شخصية خفية لا تفارقها أثناء الليل .. »

قال الدكتور وهو يسكب لنفسه بعض النبيذ :

إن ذلك سوفسطائية ماهرة .. غير أنها لا ترتكز على أساس متين إذ انك تفترض أن المخ يشتمل على أثر الصور والذكريات كما تشمل الوزارة على الملفات . فاسمع لى — أنا الطبيب — أن أقول : إنه ليس لدينا أى دليل على تكوين مثل هذا المخ . إن فكرة انطباع آثار الإدراكات والإحساسات فى الدماغ ، وبقائها فيه ، تتلاشى فى نظر الأخصائيين . وحتى على فرض صحتها ، فإنها لا تبرهن على ما تقول . كلا ، كلا يا سيدى ، فكلما تعمقنا فى دراسة تكوين المخ كلما شعرنا أنه ، كما يقول فيلسوفكم برجسون ، جهاز اتصالات ، أو مركز تليفونى ، وبين الجسم وشىء آخر ، ومن الطبيعى أنه إذا هدم المركز انقطعت الاتصالات ، غير أن هذا لا يبرهن على عدم وجود المتحدث ولا على زواله بزوال الجهاز ...

— نعم ، ولكنى فى حالة المركز التليفونى أو من بوجود المحدث لأنى أستطيع بوساطة تجربة غاية فى السهولة أن أجده ، وذلك بالانتقال إليه سائرا أو ممتطيا جوادا ، أو راكبا طائرة . فهل رأى أحد الروح ؟ أتستطيع إعطائى أى مثال عن التفكير مجردا عن الجسم ؟

— بالتأكيد ... فالتفكير الذى جشّمك مثال واضح لهذا .

ألا تعلم أنه لو لم توجد « قوة حيوية » أو « تفكير خالق » قبل تكون الجسم أو تكون خلية منه أو حتى قبل وجود أول نقطة ترى من البوتبلازم ، فإن

المادة ما كانت تنتظم قط ، وتصير جسما تدب فيه الحياة .. ؟ ومهما يكن من شيء فمن العجيب أن تكون أنت قد صغت جسما — وهو الذى أمامى — من الكربون والأكسوجين والفسفور وبعض المواد الأخرى .. وأعجب من هذا أنك تكون قد صغت من تلك المواد جسم إنسان لا جسم دب أو جمبرى ... فأين المرتكز المادى لهذا التفكير الذى أوجدك ؟ وأى مخ نقل إليك الأفكار الوراثية التى ميزتك ، وخصصتك ، وطبعتك بطابع معين ؟

— هل أنت جاد فى حديثك يا دكتور ؟ ألا تعتقد بكل بساطة أن هذا المرتكز المادى كان فى الخلية الملقحة التى منها خرج جسمى .. لست على معرفة عميقة بعلم الحياة ولكن ..

— إنك لتضحكنى بآرائك هذه ، أعلمت قط يا بنى أنه من الممكن البرهنة علميا على أنه منذ خمسة وثلاثين عاما كان جسمك الحالى وروحك الموجودة مصورتين فى الخلية التى منها نشأت ؟

لقد قلت لى منذ لحظة « إنى أومن بوجود المحدث لأنى أستطيع بوساطة تجربة بسيطة أن أجده .. » فأى تجربة قمت بها فيما نحن بصدده ؟ .. ماذا يبيح لك أن تتخيل أنه يكفى أن يكبر فقط منظر خلية حتى يصل إلى حجم هائل ، لا تزال للآن ميكروسكوباتنا عاجزة عن إنتاجه ، فنكتشف فيها أنف أسلافك أو تعصبا جديا للأخلاق ؟ وإذا كنت حقيقة تعتقد بذلك.أترى أن اعتقادك هذا اعتقاد علمى ؟ اذا توهمت هذا فقد وقعت فى خطأ صراح .. فما هذه الفكرة ، إذا صدقت بها ، غير عقيدة لاترتكز على أساس علمى ، وهى لا تمتاز من ناحية الصحة والفساد ، عن مثيلاتها مما لا يقوم على العلم ، غير أن قيامها يدهش لدى شخص كان يزعم منذ قليل أنه متحرر من كل المذاهب والنحل . أعلم جيدا أن القرن التاسع عشر بذل جهده فى إزجاع

كل ماهو روحى إلى المادة ، ولكنه فشل . إن المشاهدات لا تبرهن أبدا على أن الحياة العقلية أو العاطفية تتضمنها الحياة المادية ، بل بالعكس إنها تبرهن على أن الحياة الخلقية أو العاطفية تضيف إلى الحياة المادية عالما مجهولا بأكمله ..

وأقبل عندئذ رئيس الطهاة الضخم ، المورد الوجه ، حاملا القهوة ، وكانت مخايل الدهشة والاستغراب بادية عليه ، فما من شك فى أن من ينزلون بفندق جونسن لم يتعودوا المناقشة بحرارة فى موضوع خلود الروح كما كنا نفعل ، فالتزمت الصمت ولا سيما أن أدلة جيمس قد بعثت فى نفسى الحيرة ، فقدمت إليه سيجارة ، وأخذ يدخن فترة من الزمن ، ولا ينطق ببنت شفة .

ثم قلت أخيرا :

ـــ مهما يكن .. مهما يكن من الأمر .. فلنحاول الأخذ بطريقة البرهان العكسى يا سيدى الدكتور .. إذا فرضت أن لكل شخص منا روحا خالدة ، فأين يكون .

ـــ يا للعجب ـــ مليارات المليارات من الأنفس التى تنسمت الحياة وإلى أين تذهب مليارات المليارات من الأنفس التى سوف تتنسم الحياة ؟ .. أين أرواح الحيوانات ؟ .

لو كنت لاهوتيا لقلت لى إنها مجردة عن الأرواح ، ولكنك من علماء الطبيعة .. هذه الأصناف التى لاتحصى من الحيوانات البرية والبحرية التى تنسمت الحياة ، أين أرواحها ؟ ..

ألا ترى أن رأيك مع كل هذا لا يقبله العقل ؟

لو كنت لاهوتيا لأجبت بأن تلك الأعداد التى تبعث فى نفسك الفزع ليست شيئا بجانب عظمة الله ولا نهائيته .. على أنك الآن تتحدث عن حياة

خالدة بعد الموت لجميع الشخصيات بينما أنا لا أطلب منك كل هذا ألا تستطيع أن تتصور أن كل جسم حى تتصل به كمية معينة من قوة مجهولة الطبيعة نسميها — على تسامح — السيال الحيوى ، فماذا يمنع من أن نرى أن هذا السيال يعود إلى أصل مشترك ؟ ..

لماذا لا يكون هناك مصدر للاحتفاظ بالحياة مماثل لمصدر الاحتفاظ بالنشاط ؟ ..

إذا أجبتنى إلى الموافقة على هذا فسأعلن رضاى .

— تعلن الرضى ؟ ولكن لماذا ، ياعزيزى الدكتور ، تغالى فى أهمية فروض لا ترتكز على أساس متين ؟

قال وهو يشرع فى القيام :

— **هذا ماسأشرحه لك بعد ساعة ياعزيزى إذا تفضلت بمرافقتى إلى المستشفى ..**

٤

بينما كنا نتناول العشاء إذا بضباب كثيف يغمر جنبات المدينة ، وكانت المصابيح المتقدة تبعث من السيارات المختفية فى وسط الضباب ، أكاليل من الأنوار الحمراء والبيضاء ، وكان منظر الاسترند يبعث فى النفس شيئا من الفزع

فأشار علىّ جيمس أن أمسك بذراعه ، وقادنى إلى العربة ، وكان قد التزم الصمت منذ أن غادرنا الفندق ، فما أن جلسنا حتى سألته :

- ماذا عسى أن نرى ؟

- ربما لانرى شيئا .. سوف تحكم بنفسك ..

وعلى أية حالة يجب أن تعلم أنك أول شخص أسر إليه بأبحاثى ، وستفهم لماذا كان ذلك .

ثم أردف ، وهو يلقى بنظرة عدائية إلى إمرأة لابسة ثياب الحداد وجالسة بالقرب منى .

أفضل ألا أتحدث هنا . وعبرت السيارة نهر التاميز فى وسط هالة من ضباب كثيف تخاله القطن الأصفر المندوف وقد أكسبت نيران المعامل ، على ضفة النهر البغيضة ، الليلة القطنية أنوارا عظيمة باهتة . أما أنا فقد صيرتنى هزات العربة المتتابعة وسنان وفجأة قال الدكتور جيمس :

ـ آن النزول . كنا حينئذ أمام مستشفى القديس برنابيه الذى كان يتألق تألقا خافتا فى غمرة الضباب ، فقادنى جيمس ـ وسط الأفنية ـ والخطا بمهارة الخبير المتثبت . وما لبثت أن رأيت باب حجرة الأموات المعدنى . ومع أنى كنت أقدر أنه سيقودنى إلى تلك الغرفة ، فقد أقشعر بدنى قسرا . وبدا رفيقى فى حالة توتر عصبى شديدة . ماذا سيرينا جيمس من أسرار تتصل بعالم الموتى الرهيب فى مسائنا هذا ؟ كان الباب مقفلا بالمزلاج فدق جيمس على الباب دقة طويلة أتبعها بدقتين قصيرتين .

فصاح جريجورى من الداخل مسمعا صوته الكريه :

ماأنذا يا سيدى ..

وما أن سمعت صوته حتى استولت على حالة من الضيق تألمت لوجودها ، غير أنى لم أتمكن من التغلب عليها . والآن ، وأنا أفكر هادئا فى تلك الحالة ، فإنى لا أجد من الهين على تعليل شدتها . فإذا كان جريجورى لم يرق فى عينى ، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى اعتبارى إياه غير محضر لاينفع ولا يضر ، ثم إن معرفتى الطويلة بجيمس تبعث فى نفسى الثقة به ، حقا لقد تغير كثيرا منذ عرفته فى أثناء الحرب . حقا لقد تغير حتى أصبحت أشك فى حاله أهو فى تمام عقله . ولكن ماذا كنت أخشى ؟ أمنظر الموت ؟ لقد ألفته فيما بين سنتى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الاشتراك فى اقتراف جريمة بدون علمى ورضاى ؟ ولكن أية جريمة ؟

حاولت قدر جهدى ، كما كنت أفعل منذ عشر سنوات ، أثناء الضرب بالقنابل ، ألا تطير نفسى شعاعا ، وألا تراع ، ثم ولجت الباب عازما على أن أكون مالكا زمام نفسى وقال جريجورى :

ـ سعد مساؤك ياسيدى الدكتور ..

غير أنه حين لحظ وجودى شده ، وظهر عليه أنه قد ضاق بى ذرعا وقال :

ماهذا يا سيدى الدكتور ؟ .. أأحضرت معك شخصا ؟ .. ثم اعتزل به ناحية وأسر إليه بصوت خافت ألفاظا لم أتبينها .

فقال جيمس بصوت عال :

ـ لاتعر هذا بالا ، فصديقى هذا فرنسى غريب عن المستشفى ، ثم إنه كان رفيقا وفيا لى طوال مدة الحرب ، وسوف لايبوح بشىء ..

ـ آمل ذلك ، آمل ذلك ، وإلا كان الجزاء ياسيدى الدكتور ، أن نودع المستشفى إلى الأبد .

فأجاب جيمس فى شىء من الضيق : حسن ، حسن ، أؤكد لك أنه سوف لايبوح بشىء .. هل تسلمت الرجل ؟

فتنحى جريجورى عن مكانه ، مظهرا بذلك مائدة التشريح ، فرأيت عليها جثة كاملة العرى ، رأسها مرسلة إلى الوراء . وعرفت فيها الرجل ذا اللحية البيضاء الشقراء الذى رأيته فى الصباح يحتضر . لقد كنت اخطأت حين حسبته شيخا . كان المرض قد أنهك وجهه غير أن جسمه كان لايزال فتيا جميلا ذا عضل قوى يوحى ـ وهو فى حالة الموت تلك التى يرثى لها ـ بشعور مؤلم عن مقدار تلك القوة الهائلة التى أسرف فى تبذيرها وكان على فخذه الأيسر وشم يمثل ثعبانين متعانقين وعلى صدره وشم آخر يمثل زورقا ملأت قلوعه الريح .

قال جيمس : لقد تأخرنا .. هذا الضباب .. كم مضى من الزمن منذ أن أحضرته إلى هنا ؟

لقد لفظ النفس الأخير فى الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين بالتقريب ياسيدى الدكتور .. والساعة الآن العاشرة والنصف

قال الطبيب : لابأس .. لم يضع الأمر برمته من يدنا كن نشيطا يا جريجورى ! احضر الميزان .

ثم اسرع متلفتا نحوى : أما أنت فاجلس على أحد المقاعد .. لا تلفظ ببنت شفة ولا تأت بحركة الآن .. سأشرح لك فيما بعد ما تكون قد شاهدت .

وما أن اختفى جريجورى تحت المقاعد حتى ظهر حاملا آلة ، عرفت بعد أن أتم تركيبها وأعدها أنها ميزان ، فى أعلاه لوحة صغيرة كميناء الساعة وبه عقرب . كان هذا الميزان يشبه ما نراه من مثله فى محطات السكك الحديدية . وكان المسطح الذى توضع عليه الأشياء للوزن بحيث يسع جثة إنسان ممدودة . فألقى عليها المحضر ، بمساعدة جيمس ، جثة الرجل الأشقر . ثم ثبت فى أعلى العقرب مرآة صغيرة . واختفى جريجورى من جديد تحت المقاعد ، ثم عاد حاملا أسطوانة مركبة فوق عمود طويل . وسمعت لف زنبرك ، فأيقنت أنه كان يملأ آلة تشبه إن تكون ساعة .

قال الدكتور فى حدة :

ـ هيا أسرع يا جريجورى أسرع .. أمتأهب أنت ؟ .

لأطفئ النور . وما إن أتم حديثه حتى كان النور قد انطفأ . وحينئذ رأيت شعاعا عكسته المرآة المثبتة فى أعلى العقرب يضىء الأسطوانة التى كانت تدور ببطء . وهكذا كلما تحرك العقرب حدثت حركة ، أوسع نطاقا فى نقطة من النور على سطح الأسطوانة . كانت هذه هى بعينها الطريقة التى اعتيد استعمالها لزيادة حساسة الجلفانومتر . وقد شاهدتها قديما فى عهد الدراسة فى فصول الطبيعة.

لم أفهم شيئا قط من التجربة التى كنت أشاهدها ، لكن الموضوع كان قد أخذ مظهرا علميا ، فأصبح مألوفا لدى ، وأعاد الطمأنينة إلى نفسى ، وأصبحت أشعر بجماله الفريد ، فتلك الظلمة التى يتلألأ فيها شعاع ضئيل ، وهذا الجسم العارى الذى يتوهمه الإنسان فى إبهام خلال ظلمة الليل ، ووجه جيمس المنحنى على الأسطوانه والذى كان يضيئه الشعاع لحظة بعد أخرى ، كل هذا كان يذكرنى بلوحات المصور ومبراندت التى تمثل فيلسوفا وكيماويا يعملان فى ظلمة باهتة لايتخللها غير نور ضعيف منبعث من نافذة ضيقة غريبة .

خيم السكون على الغرفة لحظة ، ثم ارتفع صوت جيمس من ثنايا الظلمات قائلا :

ـ هل بدأت تفهم الآن ؟ .. لعلك أدركت أن النقطة المضيئة على سطح الأسطوانة تعين وزن الجسم .. انظر الآن إلى العلامتين المتألقتين تحددان أعلى وأسفل الأسطوانه .. تر أن النقطة التى يقع عليها الشعاع تهبط قليلا .. إذن وزن الجثة يقل فلم يقل ؟ ليس من الصعب إدراك السبب .. إن جزءا من الماء الذى يشتمل عليه أنسجة الجسم يتبخر ببطء ، وبما أنه ليس هناك ما يعوضه من الغذاء .. لاحظ أن ذلك الهبوط مستمر فى انتظام ، وهذا ما يمكنك رؤيته إذا لاحظت النقطة المضيئة تهبط بدون ارتجاج . وفى الواقع لايرى الإنسان أية علة لعدم انتظام هذا التبخر .. مضى الآن نحو ساعة منذ حدوث الموت .. ستستمر تلك الظاهرة مدة نصف ساعة أخرى تقريبا . ثم ينبغى أن تركز انتباهك على الأسطوانه . وتلا ذلك صمت عميق حتى لقد سمعت تنفس جريجورى وجيمس . استمرت النقطة المضيئة فى هبوطها البطىء بينما الرجل ـ

الذى كان ، من غير ريب ، فى عين زوجته وأطفاله ، مركز العالم – ملقى على المسطح ، تجرى عليه تجربة غامضة . وفى سقف المدرج دق الجرس ثلاثة ثم اثنتين . وبعد هنيهة قال جيمس بصوت لمحت فيه من جديد التوتر العصبى الشديد الذى كان قد انتابه فى بداية هذا المساء .

مضت ساعة وخمس وعشرون دقيقة . فعلقت بصرى بالأسطوانة لا أحيد عنها . وكنت أسمع فى وضوح دقات كرونومتر كان يحمله ، من غير شك ، فى يده وبعد فترة أخرى قال :
مضت ساعة ونصف .

ثم رأيت بعد ثوان ، النقطة المضيئة تقفز فجأة . لقد كان القفز ضئيلا غير أنه كان من السهل ملاحظته . فصحت :
– هل رأيت يا دكتور ؟
فرد جيمس ساخرا :

لقد رأيت جيدا وما أحضرتك هنا إلا لترى هذه الظاهرة ، ثم أضاء جيمس المصابيح فرأيت ، ولم أزل بعد فى حالة الغشاوة ، شاربى جريجورى المدهونين اللامعين ، والرجل الأشقر الممدود فى وضع من تلك الأوضاع الخاصة بالموتى ، والتى يتبين فيها الإهمال والرخاوة .

عاودنى الهدوء .وشعرت باتجاه قوى نحو المعرفة . ووجدت الموضوع شائقا إذ بدأت أفهم ما يبحث عنه صديقى . فوددت من كل قلبى أن أعلم كيف يفسر هو تجربته . وما لبثت أن قلت – لم يبق الآن إلا أن تشرح لى ..

ـ انتظر .. يجب أن تترك جريجورى يذهب أولا لشأنه .. ثم نذهب نحن إلى غرفتى لأريك أشياء أخرى .. شكرا يا جريجورى إلى الغد . قال الرجل القصير بكل أدب . بينما يحمل الميت بين ذراعيه ليضعه على مائدة التشريح :

ـ أأحتفظ بالقلب للأستاذ سيمبسن .

فقال جيمس هازا كتفيه :

من الذى يهتم بالقلوب ؟ نعم يجب طبعا أن تنفذ ما تؤمر به. وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة دون عليها بعض الأرقام ، ثم أخذ بذراعى وذهبنا .

٥

أخذت مكانى فى المقعد الوحيد الموجود فى الغرفة وكان عن يمينى كأس من الويسكى ، وعن يسارى علبة من السجاير ، وما لبثت أن سألته :

ـ الآن يا دكتور ؟

ـ والآن يا صديقى افترض أنك تنتظر منى شرح ما شاهدنا .. ولكننى أود أن أعلم أولا رأيك فيما رأيت .

ـ أنا ؟ .. ماذا تريد أن أقول لك ؟ إن الحديث الذى دار بيننا أثناء العشاء ، ثم التجربة التى شاهدتها منذ لحظة يرشدان.

ـ فيما يظهر ـ أنك تبحث عن ... ماعساى أسميه .. النفس الإنسانية ..

وإلى أنك تؤمن بالروح فتبحث عنها بطرق مادية .. مع أن هذا ـ معذرة وصفحا ـ كما يبدو لى يتعارض مع الروحية .. على أنه من الخطأ أن أتعجل فى الحكم ما دمت لا أعلم شيئا عن تجاربك فيما عدا تجربة هذا المساء . عليك إذن البدء فى الحديث .

كان جيمس واقفا متكأ على المدفأة فأشعل غليونه . وعندئذ ـ سمعت طنينا وراء الستارة الخضراء ، كأنه صوت عدو له مخالب حادة على لوح من خشب .

ـ جيمس أصدقنى الخبر ، إن هذه فيران ، أليس كذلك ؟ فقال مبتسما : فأر فأر ! .. ينبغى أن أذهب بك لترى مسرحية هملت .. توجد الآن فرقة تمثيلية

جديدة .. سنتحدث ياعزيزى عن الفيران بعد قليل . فلنعد إذن إلى بنى الإنسان .. سأبدأ بالإجابة على اعتراضك الأول . لقد قلت لى : « إنك تبحث عن الروح فى صورة مادية »

ليس الامر كذلك .. إذ انى لا أبحث عن الروح ، بل عن نوع من الطاقة ، إذا اتصل بالمادة منحها تلك الخاصة المجهولة : الحياة .. إنك توافق على أنه لم يمكن إلى الآن إحداث ظاهرة الحياة بواسطة تركيبات طبيعية على الرغم من تأكيدات الماديين المتعصبين .

ـ هذا صحيح .. غير أنه يمكننا الاعتقاد بأننا سنتبين الأمر فى ذلك يوما ما .
فقال فى شيء من الضيق :
ـ إذا سرت على هذا النسق فليس هناك ما يمنع من اعتقاد كل شيء .. لكنى أكرر أن هذا ليس من العلم فى شيء ، بل هو عقيدة لا ترتكز على أى أساس .. ومهما يكن الأمر ، فلا يسعك إلا موافقتى على أننا علميا وتجريبيا ، لانعرف ما الحياة .. ليس من الحماقة إذن البحث ـ كما أحاول أن أفعل ـ عما إذا كان فى الأجسام الحية نوع من الطاقة يختلف عن كل الأنواع المعلومة .. لاحظ أن هذا البحث لا يثير المعنى الدينى أو الفلسفى للروح ، ولكنه يبدله ويحوله ويؤخره إذا وصلت إلى اثبات أن كل كائن حى ينطوى على كتلة معينة من « السيال الحيوى » فإنه يبقى علينا بعد ذلك أن نميز فى هذا السيال نفسه بين ما يرجع إلى الروح وما يرجع إلى المادة . ثم يبقى علينا أيضا بيان كيفية ارتباطهما ، أقول لك ذلك حتى لا تتأثر بالآراء القديمة المتوارثة ، فتشك ـ بدون تحقيق ـ فيما أحدثك عنه ..
ـ لقد بينت لك ياعزيزى جيمس موقفى فيما يتعلق بهذا ، وأنا الآن مصغ إليك ، بروح ناقدة ، لكنها متحررة من كل قيد .. وعلى أية حال ففكرتك

فيما يتعلق بالسيال الحيوى ليست جديدة فمسمر الذى كان أحد الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية ..

فقال الدكتور وهو يأخذ نفسا عميقا من غليونه :

ـ نعم نعم أعلم ذلك .. لكن هناك على الأخص شخص أهم منه قد سبقه ، ويغلب على ظنى أنك تجهله ، وهو البارون دى ريشنباخ .

ـ لقد صدقت ، إنى لا أعرفه فمن هو ؟

ـ إنه شخصية عجيبة ، ولقد اعتقله رجال الشرطة الفرنسية . لأنه أراد تأسيس دولة مستقلة جديدة ..

لقد كان كيماويا كبير فهو الذى اخترع البرافينى والكربوزوت وفى سنة ١٩٦٠ انغمس فى دراسة مسألة إشعاعات الأجسام الحية . كان يملك فى بافاريا عدة قصور ، هى فى الجمال غاية : بعضها يقع على شاطىء البحيرات ، والبعض الآخر أنشأه فوق الجبال ، ودأب يجمع فيها أناسا على جانب عظيم من الحساسية حتى أنهم ليرون ـ فى الظلام الحالك حول الآدميين والحيوانات والأزهار ـ سيالات مضيئة سماها ريشنباخ « أود » وهى كلمة سنسكريتية معناها « الذى يخترق كل شىء » هؤلاء الأشخاص الذين يجمعهم ريشنباخ يرون فى الظلام حول الأجسام إشعاعات خارجة منها ليست بدخان ولا ببخار ، ولكنها تشبه أن تكون لهبا لطيفا .. غير أن من الغريب أن تلك الإشعاعات مشربة بالزرقة حول الجزء الأيمن من الجسم ، وبالحمرة حول الجزء الأيسر منه لقد حاولت إعادة تجارب ريشنباخ فلم أصل إلى أدنى نتيجة ، ولا أظن أنك رأيت « اللهب الأودى » حينما كنا مجتمعين منذ قليل فى الظلام الدامس ، رغم أننا كنا جميعا فى حالة من الحساسية لاغاية بعدها ؟

ـ كلا لم أر شيئا .

وحول الجثة ؟

لاشيء ..

وأنا أيضا لم أر شيئا ، وكان الأمر كذلك ولكنني وجدت شيئا آخر ، هأنذا أقص عليك أمره .. لقد قرأت فى صحيفة طبية كانت تصدر أثناء الحرب قصة تجربة قام بها رجل يدعى الدكتور كروكس ، وقد قال إنه وزن جثث الحيوانات ، فلاحظ هبوطا مفاجئا فى الوزن بعد زمن معين لكل فرد بعينه .. وقدر هذا الهبوط المفاجىء فى جثة الإنسان بسبعة عشر فى المائة من المليجرام ، وانتهى من ذلك بقوله « إذن فالروح موجودة ، ووزنها ١٧ ٪ من المليجرام » حملت هذه الصورة ، غير المهذبة من البحث على الاعتقاد بأن ذلك من لغو الكلام . بل لقد أعلن أن كروكس هذا مخبول ، فلم يقرأ أحد بحثه بعناية .. أما أنا فقد استوقفنى ظاهرة الإخلاص فى أسلوبه ، والدقة فى ما أدلى به من تفاصيل ، ومع ذلك فما كنت لأحاول إعادة تلك التجارب الصعبة المملة لو لم .. « وهنا توقف ولاح عليه أنه أسف على أخذه فى تلك الجملة ، ثم قال دون أن يتممها » وفى العام الماضى أوحت إلى الظروف ، وحياة المستشفى التى تضع فى متناول يدى الجثث ، أن أتحقق من صحة قول كروكس .. فوجدت – على دهشة – أن ما قاله حق .. غير أنه لم يصل بالتجربة إلى غايتها الأخيرة . إن الهبوط المفاجىء أثناء استمرار التبخر عند الإنسان لا يحدث مرة واحدة فقط ، بل يتكرر ثلاث مرات . فالمرة الأولى ، تلك التى لاحظتها هذا المساء ، تحدث بعد مضى ساعة وخمس وثلاثين دقيقة تقريبا من الموت ، وتتراوح فيما بين ١٥ ٪ و ١٩ ٪ من المليجرام .. أما الثانية والثالثة – ولم انتظرهما اليوم لتحققى منهما جيدا – فتحدث إحداهما بعد الأولى بعشرين دقيقة ، وتحدث الأخيرة بعد ساعة تقريبا .. أتريد أن تقول شيئا ؟

– ليس بشيء هام .. إنه لايعدو ملاحظة بسيطة .. من الطبيعى أنك لا تتمكن

من وضع الجثة على مسطح الميزان إلا بعد الموت ببضع دقائق ، فمن يدريك أنه لم يحدث هبوط مفاجيء أثناء تلك الفترة ؟

ففكر هنيهة ثم قال :

ــ هذا صحيح .. لكنى أعود إلى الحديث عما أعلم عن خبرة .. ففيما يتعلق بنتيجة التجربة لا يسعنا الشك .. لقد لاحظت ذلك بنفسك منذ قليل ، وكل شخص يمكنه التحقق من ذلك ، أضف إلى هذا أنى أجريت تلك التجارب على الحيوانات . لذلك جلبت تلك الفيران التى شغلت فكرك .. فاتضح لى أيضا من هذا أن استنتاجات كروكس صادقة ، فالهبوط المفاجيء موجود هنا أيضا ، على أنه ضئيل جدا بالنسبة للهبوط الذى يحدث فى وزن جثة الإنسان ، إذ هو عند الفأرة شديد الضعف حتى إنه من الصعب قياسه . هذا ما حدث ، ولا محل للنقاش فيه . أما الاستنتاجات ، فإنها موضع للنقاش .. وأشعل غليونه الذى كان قد انطفأ ، ثم نظر إلى فلم أنبس ببنت شفة ، فتابع الحديث قائلا :

ــ أن ما وصلت إليه فى البحث للآن لا يوحى إلى بأن الروح تزن ١٧,٠ من المليجرام كما يقول كروكس ، بل بأن كل كائن حى ، إنما مصدر حياته نوع لا يزال مجهولا من الطاقة ، يغادر الجسم بعد الموت .. لقد أقر علماء الطبيعة منذ أينشتين بأن لكل طاقة وزنا .. إنك تعلم أنه يمكننا وزن الضوء ، وأنه يمكننا أيضاً ــ من الوجهة النظرية ــ حصر الضوء وضغطه فى أنبوبة زجاجية .. فلم لا يكون الأمر كذلك فيما يتعلق بالطاقة الحيوية ؟ ..

حقيقة إن وزن الضوء بالنسبة لما نحن بصدد وزنه فى تجاربنا هذه ، يكاد يكون منعدما .. ولكنى لا أرى أن فى هذه حجة ضدى ، فإنه إذا دل على شيء فإنما يدل فقط على أننا أمام ظاهرة تختلف تمام الاختلاف ، وليس ذلك بعجيب .. لقد وصلنا الآن إلى معرفة حالات غريبة من حالات المادة ، حتى

أن طنا من الذرات المضغوطة إلى أصلها يمكنها أن تدخل فى جيبى الأصغر هذا .. أتتابعنى فى الفهم إلى الآن. أم تحسبنى مخبولا ؟ .

إن من الصعب أن أتعود هذا النوع من التفكير ، غير أن ما تقوله يبدو لى فى غاية الوضوح .. على أنى سأوجه إليك اعتراضا مرة أخرى . إنك -فيما يظهر- تعتبر أن الجسم الإنسانى وحدة حية ، بينما هو — على ما نعلم — ليس كذلك ، إذ إن خلايا الجسم المختلفة لا تموت كلها فى آن واحد ، فالقلب يحيا أكثر من المخ . ولا أزال أذكر أننى حينما كنت فى أمريكا رأيت فى معامل كارل ، أنه من الممكن ، بواسطة طرق صناعية ، جعل خلايا القلب تستمر دهراً لا يكاد ينتهى .. يعضد هذا ما قاله أحد العلماء ولقد نسيت الآن اسمه ، قال .. « إن خلايا الجسم بالنسبة للموت كسكان مدينة حلت بها مجاعة ، فالأضعف يفارق الحياة قبل الأقوى » فإذا كان الموت يحل بالجسم تدريجيا ، فكيف يتلاءم ذلك وفكرتك القائلة بالهبوط المفاجىء ؟ .

إن ملاحظتك هذه منطقية ، وقد فكرت فيها . أما الجواب فهو أنى لا أشاهد هبوطا مفاجئا واحدا بل ثلاثة ، ثم إن فكرتك عن الموت الفردى للخلايا لا تعدو أن تكون فرضا .. وإذا كان هناك نوع من القوة يرتكز عليه ما نسميه « بالشخصية » فينبغى أن تزول دفعة واحدة « وذلك بلا شك أثناء الهبوط المفاجىء الأعظم» وعلى أية حال فشخصية أحدنا تتميز تمام التميز عن حياة كل خلية من خلايا جسمه .. إن الشخصية إما أن توجد تامة أو لا توجد .. أكرر أنى لا أريد بذلك أن أجعل من الروح شيئا ماديا ، ولكن — كما شرحت لك منذ قليل — بما أن الروح ترتبط بالجسم لكى تعبر عن أفكارها ، ولكى تدرك ما تحس به ، فمن الممكن أيضا أن ترتبط بعد مفارقة الجسم بتلك الطاقة الحيوية المجهولة التى شاهدنا خروجها منذ قليل .

ــ **أتريد أن تقول** إن الشخصية تبقى بعد فناء الجسم إذا تمكنت الطاقة الحيوية فيه أن تتجمع كلها فى مكان واحد ؟

ــ نعم .. ولكننى الآن لا أريد أن أؤكد شيئا ، وإنما أقول فى بساطة تامة إن هذا ليس من المتعذر أن ينسجم مع العقل والمنطق .

ــ لكن هذه الطاقة ، إذا نظرنا إلى الواقع لا تبقى متجمعة .

ــ إننا لا ندرى شيئا عن ذلك ، غير أنه من الممكن (كما قلت لك فى الفندق منذ قليل) أن يكون الأمر فى هذا كالأمر فى المادة التى يتكون منها الجسم ، والتى تعود فى صور مختلفة إلى المادة الكلية ، كذلك القوة الحيوية التى عندنا ، تعود ــ عند مفارقة الجسم ــ إلى المقر الهائل للطاقة الروحية . وتستمر هناك إلى اللحظة التى ترتبط فيها من جديد ببعض الجزئيات المادية ، فتهب الحياة مرة أخرى لكائن آخر .

ــ أو بعبارة أخرى ، أنك تعتقد بخلود النفس الكلية لا بالحياة الفردية بعد الموت ؟ ..

إنك تتذوق الأفكار يا صديقى بأسلوب فرنسيى حاد .. ألا ترى أنك تقودنى الآن الى ميدان الفروض ، وهو ميدان لا ينتهى إلى غاية ؟ .. إن المسألة التى تشغل دائرة تفكيرى أبسط من ذلك وأسهل .. إذا أمكننا الحصول على الطاقة الحيوية لإنسان ما ، فهل ذلك يعنى أننا حصلنا أيضا فى الوقت نفسه على شخصيته ؟ وهل يتحقق له بذلك ــ لا أقول الخلود الأبدى ــ (كل المشاكل التى تدخل فيها فكرة اللانهاية تعلو على الإدراك الإنسانى) ولكن ، على الأقل ، فترة من الحياة بعد الموت ؟ وذلك ما أبحث عنه .

ــ إنه ، إلى حد ما ــ جنون ولكنه جنون شائق يا دكتور .. وبعد ، هل

حاولت الحصول على هذا « الشيء » الذى يزن ١٧ ٪ من الملليجرام ؟

— **إنى لم أتمكن** بعد من إجراء تجربة ذلك الإنسان .. فأجريت التجربة على الحيوانات . إذ وضعت أثناء تجربة الميزان ، بعض الحيوانات تحت أوعية من الزجاج . ولكن ماذا التقطت فيها ؟ وهل التقطت شيئا ما ؟ لم أدر قط من أمر ذلك قليلا ولا كثيراً .. على أننى أضطر لرفع الإناء الزجاجى حتى أتمكن من إخراج الحيوان ، فإذا كان قد تجمع فى الإناء شىء ، فهل ينطلق حين رفعه ؟ إنى أجهل ذلك .. إذ إن السيال الحيوى لا يزال غير مرئى رغم ما يؤكده ريشنباخ .. وذلك لا يجعل الملاحظة سهلة .. طبعا عند إجراء التجربة على الإنسان تصبح النتيجة أكثر وضوحا بسبب أن ما يجرى عليه التجربة أكبر .. ولقد طلبت من أجل ذلك ، منذ ثلاثة أيام ، إناء زجاجيا يكفى لتغطية جسم الإنسان .. سيصلنى الأسبوع المقبل ، وسنرى .. أتبقى هنا إلى ذلك الحين ؟

— أنا مضطر للعودة إلى باريس لبضعة أيام ، ولكن عملى لم يقارب بعد النهاية . لذلك سأكون فى لندن يوم الجمعة المقبل ، حوالى الساعة السابعة مساء .. أتريد أن تتناول العشاء معى ذلك اليوم ؟

— كلا ، لا أستطيع أن أترك المستشفى يوم الجمعة .. ولكن احضر أنت إلى هنا وربما .. ونظر إلى طويلا كما ينظر البناء إلى عمود من الخشب أو إلى حائط ليقدر صلابته واحتماله ثم قال :

— طبعا أنت لا تزال عند وعدك بأن لا تتحدث إلى إنسان ، كائنا من كان عما رأيته هنا .. ذلك أنى أفقد مكانى ، وأفقد الوسائل التى أتمكن بها من متابعة تجاربى . فصافحته وشددت على يديه ثم افترقنا .

٦

كان الضباب حينئذ مخيما على المدينة فأخذت أتلمس السبيل إلى الفندق حتى وصلته حوالى الساعة الثالثة صباحاً وعبثا حاولت النوم فلم أجد إليه من سبيل .

ها أنذا قد وصلت من هذه القصة إلى حيث قادتنى الظروف للقيام بدور له شأنه العظيم فى هذه المسألة وأريد أن أعترف ، أولاً وقبل كل شىء ، بأنى أخللت بوعدى المؤكد إلى جيمس بألا أتحدث عن أبحاثه إلى أحد .

إذ إنى تحدثت فى ذلك — وإن كان بطريق غير مباشر إلى عالم فرنسى . ومع ذلك فقد كان لى — على ما يبدو — عذر مقبول ، ذلك أنى أولا لم أتعمد إفشاء السر ، ولكن الاتفاق المحض هو الذى جعلنى فى هذه الفترة أقابل مونستيه أول مرة ، ثم إن القارىء سيرى الأسئلة التى ألقيتها على مونستيه كانت موضوعة فى صورة لا تدع التفكير مطلقا يتجه إلى أن أبحاثا كهذه يقوم بها — على شدة غرابتها — طبيب . وأخيراً لا يسعنى إلا القول بأن ما فعلته ، على ما فيه من قلة الاحتياط ، قد عاون جيمس ، على أن يخطو خطوة حاسمة نحو حل المسألة .

وصلت باريس يوم السبت ، وفى مساء اليوم نفسه تناولت العشاء لدى بعض أصدقائى . وحينما أخذت مكانى من المائدة رأيت أن جارى عليها هو

مونستيه . لقد كنت معجبا به منذ زمن بعيد ، لا لأنه يعد ــ بعد جان بيران ولنجفان ــ أحد أعاظم علماء الطبيعة عندنا ، لكن لأنه ــ مع هذا ــ كاتب كبير . لقد فتنت بهذا الرجل المغرى .

كانت له عينان زرقاوان حادتان كعينى طفل ، وكان له شعر أشيب ، وصوت به غنة الشباب ، وفيه طابع السرعة . إنى ما زلت أذكر أنه حدثنى أولا عن أبحاث اسنولت ــ بلتيرى ، واحتمال السفر إلى القمر .

ثم قال :

ــ أنا لا أذهب إلى القمر ، ولكن ربما يذهب إليه ولدى ، أما حفيدى ، فإنه يذهب من غير ما شك .. ومهما يكن الأمر ، فسيوجد متطوعون بالمئات ..

فقلت :

ــ كيف يتنفسون ؟

ــ يحملون معهم الأوكسيجين ، وفيما بعد ، حينما تتكون هناك جالية من بنى الإنسان ، سيفتح سوق لتجارة الأوكسيجين ، يذهب إليه ربات المنازل أو الخادمات لشراء ما يلزمهن من الهواء النقى ، وستبدو تلك الحياة بسيطة فى نظر أولئك الذين سيحيونها . ماذا كان يرى (كرستوف كولمب) لو وصفت له الباخرة (ايل دى فرانس) .. عد إلى قراءة (چيل ڤرن وويلز) ، تر أن كل أحلام الجيل السابق قد أضبحت حقائق فى جيلنا الحاضر .

وما إن تحدث عن چيل ڤرن وويلز بأسلوب شائق حتى استولت على رغبة فجائية ، ليس إلى دفعها من سبيل ، فى أن أسأله عن القيمة العلمية لأبحاث الدكتور جيمس ، فقلت :

ـــ تصور أنني ـــ أنا أيضا ـــ أريد أن أكتب قصة خيالية . وبما أن الفرصة الآن سانحة لاستطلاع رأى عالم جليل ، فإنى أكون سعيداً لو عرفت رأيك بشأن قصتى .. ستجد بالطبع أن الموضوع ضلال أوهام .. إنى أعتبره كذلك أيضا .. ولكن على فرض أن عالما استولت عليه نوبة دفعته إلى القيام ببعض التجارب ، فإنى أريد أن أعرف أى خطة يتخذ ، والسبيل التى يسلكها . ثم أخذت أقص عليه ، كحكاية خيالية ، أحاديثى مع جيمس ، والتجارب التى شاهدتها . فأنصت إلى ، وعلى فمه ابتسامة ، وفى عينيه علامات الرضا والتشجيع ، ثم قال :

ـــ ليس هذا إغراقا فى الوهم ، فلماذا لا توجد أنفس كما توجد الكترونات ؟ إننا لا نكاد نعلم شيئا .. وماذا تريد بالضبط أن أقول لك ؟ .. التجارب التى يمكن لطبيبك القيام بها ؟ .. لو كنت فى مكانه لحاولت أولا أن أبحث عما إذا كانت بعض الإشعاعات تظهر الطاقة التى يعتقد أنها موجودة تحت ناقوسه الزجاجى . أرأيت مواد مضيئة ، خفية فى وضح النهار ، تصبح مرئية فى الظلام إذا صارت هدفا للأشعة التى فوق البنفسجية ؟ ..

ـــ كلا ، إنى لم أر ذلك فى حياتى .

ـــ سأريك هذا ، إنه منظر جميل .. أيمكنك أن تأتى غداً إلى المعمل ؟ ..

ـــ سأكون سعيداً بذلك .

وفى الغد وجدته فى مبنى جديد ، بين آلات لامعة معقدة التركيب . وفى اللحظة التى دخلت فيها كان واقفا أمام أنبوبة زجاجية ، وحينما اقتربت منها رأيت بداخلها حلقات من ضوء وردى بنفسجى شاحب عجيب ، وما إن رآنى حتى قال :

ـــ نهارك سعيد .. هاك ظاهرة غريبة .. انظر .. إلى أمر بقطعة من المغناطيس على هذه الأنبوبة ..

كان بيده قطعة من المعدن هلالية الشكل . فاتجه بها ببطء نحو اليمين . فرأيت حينئذ الحلقات تتبع قطعة المغناطيس ، فيتباعد بعضها عن بعض ، وتصير شفافة باهتة ، أكثر من ذى قبل . ثم اتجه مونستيه بقطعة المغناطيس نحو الشمال فتداخلت الحلقات فى بعضها حتى لم تعد سوى حلقة صغيرة من مادة بنفسجية .

فقلت له :

ـــ إن هذا لبديع حقا .. ولكن ما تفسير ذلك ؟

ـــ تلك هى المشكلة التى لم نهتد إلى حلها بعد .. ولكنك حضرت لتشاهد ظواهر أخرى .. لست أريد أن أضيع عليك زمنك .

وكان يوجد فى ركن من الغرفة آلة سوداء ، تشبه آلة التصوير الكبيرة الحجم ، مغطاة بالقماش الذى يستعمله المصورون حينما يشرعون فى التصوير .

ـــ فقال مونستيه :

ـــ هذه هى الآلة التى تنتج الأشعة فوق البنفسجية .. فالضوء المرئى يقف عند خروجه بسبب لوحة سوداء من خصائصها إنها لا تدع شيئا يمر إلا الأشعة الغير مرئية .. هل لك فى إطفاء الكهرباء ؟ إن زر الإطفاء على الشمال قليلا .. والآن سأدير الآلة فى الظلام .. إنك لا ترى شيئا ، وإذا وضعت يدك فى طريق الأشعة فإنك سترى أنها فى جزء منها ، مرئية ، وإذا تركتها فترة طويلة من الزمن فإنها تحترق .. حسن .. سأضع الآن أمام الآلة كرة من الزجاج مملوءة بالماء .. إنها لا ترى طبعاً .. ولكنى أسكب فى هذا الماء مادة تظهر عند مرور الأشعة التى فوق البنفسجية عليها .. انظر .

وفجأة ظهرت فى هذا الظلام الدامس نقطتان فى زرقة الصلب كأنهما كوكبان معلقان فى الليل ، واتسعت كل منهما آخذة شكلا مخروطيا ، ما فتىء يدور فى بطء ويكبر ، وكلما كبر أخذ فى الخفوت ، واشتد الخفوت ، ورق الشكل وأصبحت الكرة مملوءة بما يشبه الدخان السائل ، أو الغيم اللامع .

فقلت :

ــ ما أجمل هذا .. إن الإنسان ليكاد يعتقد أنه يشهد خلق المادة .. ولكن لم كان هذا غير مرئى فى الضوء العادى ؟

فأجاب وهو يبتسم :

ــ إن التعليلات العلمية يا سيدى العزيز ، ليست غالبا إلا مجرد ملاحظة للظواهر .. أتذكر ما قاله موليير quia est in eo virti dormitva » ذلك يبعث النوم لأنه منوم » لأن هناك جواهر لا ترى إلا فى الأشعة التى فوق البنفسجية .. وإذا عدنا إلى قصتك التى كانت ميدان أحلامى الليلة الماضية ، فليس هناك ما يمنع من أن يصير السيال الحيوى الذى تزعمه مرئيا فى الأشعة التى فوق البنفسجية .. ويمكن أن يستعير طبيبك من المستشفى آلة مثل هذه .. فإذا ما تم له ذلك فليضع أحد أوعيته الزجاجية بحيث تمر به الأشعة .. ومن يدرى ؟ فلعله يرى فجأة « الأرواح » تصير واضحة لامعة .

ــ نعم .. إنها لفكرة حسنة .. ولكن ألا تظن أن زجاج الآنية يسمح للطاقة التى يحتويها أن تنطلق من بين مسامه .. ألا يلزم استعمال ناقوس من معدن أو من البلور ؟

ــ آه ! لست أدرى .. ذلك أن هذا يتعلق بطبيعة السيال الذى لا أعلم عنه شيئاً ، ولكننى لا أرى باعثا يدعو إلى الشك فى كفاية الزجاج .. على

أنه إذا كان الزجاج غير كاف ، فمن الممكن أن نفترض أن طبيبك يستعمل زجاجا مغرى ، فيستعمل حينئذ نواقيس جميلة من الزجاج الأحمر .. ولكنني أريد أن أريك شيئا آخر .

ثم أراني صفائح من الصابون رقيقة إلى أقصى حد من الرقة تتكون عليها بقع ملونة بألوان زاهية لا تستقر على حال ، فلم أجرؤ حينئذ أن أحدثه عن « قصتي » .

٧

عدت إلى لندن يوم الجمعة مساء . وكان بحر المانش مضطربا ساعة عبورى ، فشعرت بتعب حملنى على لزوم الراحة ، فلم أذهب لرؤية جيمس بالمستشفى إلا صبيحة يوم السبت .

وحينما وصلت لم أجده فى حجرته ، غير أن بابها كان مفتوحا ، فدخلت لانتظره فيها . وكانت الستارة الخضراء منكشفة عما وراءها من رفوف كانت مغطاة أثناء زيارتى الأولى ، فرأيت هذه المرة أنها تحمل ميزانا صغيرا ، وناقوسا من الزجاج ، وبعض الزجاجات الصغيرة وفى انتظار عودة صديقى أخذت أنظر إلى صور النساء الموضوعة على منضدة الكتابة فرأيت حينئذ (وذلك مما لم ألاحظه أول يوم قابلته فيه) أن جميع الصور تمثل امرأة واحدة لاتزال فى حداثة الشباب ، حتى ليكاد الإنسان يعتقد أنها لم تتجاوز سن الطفولة ، تلوح عليها الوداعة والسذاجة . أما تقاطيع وجهها فإنها ساحرة ، ذات شعر ذهبى ناصع ، يخيل للإنسان أحيانا أنه مائل إلى البياض . وفى أغلب هذه الصور كانت ترتدى تلك الغادة ملابس ليس لعصرنا بها عهد أمثلة هى ؟ أم أنها تنعم بإحاطة جمالها الرائع بصور مختلفة من الزينة ؟ وبينما أنا مستغرق فى أحلام يبعثها فينا دائما غموض سر الجمال فى الوجه الجميل ، إذا بى أسمع وقع أقدام . فالتفت فإذا بجيمس يضع يده على كتفى ، ولبث ، هو أيضا ، ينظر إلى الصور بضع لحظات .

ثم قال بصوته ذى الصرير :

ــ ها أنت ذا قد عدت أخيراً يا صديقى ؟ كيف وجدت « باريس المرحة » ظريفة محببة .. لا أعلم مدينة تفوقها جمالا وفتنة .. وخاصة فى فصل الربيع .

ــ ولكننا لسنا بصدد ذلك .. وإنما بصدد أبحاثك ذاتها ، فقد حصلت على توجيهات أعتقد أنها نافعة جداً .

ــ لأبحاثى ؟ كيف ؟

فحدثته بما كان ،وبينت له أن الطريقة التى استعملتها لا تحمل فى ثناياها أى خطر ، ووصفت له ما رأيت فى المعمل ، ونقلت له كل ما أمكننى أن أحيط به من حديث مونستيه .

ــ أتتبين الأمر يا جيمس ؟ يخيل إلى أنه إذا أمكنك أن تجعل الأشعة التى فوق البنفسيجية تمر فوق الجثث ، عندما تعتقد أن شيئا يفارقها فربما رأيت حينئذ أن السيال يصبح مرئيا حقيقة .. إننا بصدد فرض لا نعلم نتيجته ولكن ألا يمكنك أن تجرب ؟ ..

إن آلة الأشعة لابد من أن يوجد بالمستشفى واحدة منها حتما .

فقال وهو مستغرق فى التفكير :

ــ نعم .. غير أن الصعوبة إنما هى فى الإتيان بها إلى حجرة التشريح .. ومع ذلك فهذا نفسه لا يدخل فى دائرة المستحيلات .. كم أنا شاكر لك على هذه الفكرة الطيبة .. كثيراً ما رأيت تجارب من هذا النوع .. ولكننى لم أفكر قط فى تطبيقها فيما أنا بصدده .. وعلى كل حال يمكننى أن أحاول التجربة فى حجرتى على أحد الحيوانات الصغيرة . ولعلك تتفضل بالحضور غداً مساء لنقوم بهذا معا فوعدته بالمجىء ، ثم رجوته ، إذا كان فى عزمه أن يقتل فأرا

أو حيوانا آخر ، أن يفعل ذلك قبل حضورى ، ذلك لأنى لا أطيق احتمال هذا المنظر . فسخر قليلا منى ثم قال إن الحيوانات لا تتألم ، إذ إنها تخدر قبل القتل بوساطة الحقن .

كان جيمس حينما لقيته فى مساء الغد فى حالة توتر عصبى لا تكاد توصف . وما إن سمع خطواتى على السلم حتى بادرَ لاستقبالى مادا كلتا يديه قائلا فى صوت خافت :

ـــ مرحبا بصديقى . ما رأيك فى أننا عثرنا على حل للأمر الذى يهمنا ، والفضل لك .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ ادخل وشاهد الأمر بنفسك .

كانت الحجرة مظلمة ولكن جيمس قادنى وهو آخذ بكتفى قائلا :

ـــ انتبه فإن الآلة فى وسط الغرفة .. اتجه قليلا نحو اليسار .. استمر فى الاتجاه أيضا .. حسن .. اتجه الآن إلى الأمام .. أترى شيئا ؟ فرأيت نحو المدفأة ضوءاً خافتا فى حجم البندقية تقريبا ، غير أنه أطول قليلا . وحينما نظرت عن كثب لاحظت أن النور تتخلله تيارات لا تماثله فى الوضوح وإنما تقل عنه ، وليست مستقرة وإنما تدور فى بطء عظيم . أما المنظر العام فإنه يذكر ببعض الصور للنجوم الخافتة الضوء .

فسألته :

ـــ ماذا أرى ؟ .. إن ذلك طريف وعلى قدر كاف من الجمال ..

فقال !!!

ـــ سأريك فى وضوح أكثر .

ثم ابتعد عنى لحظة وأنار الحجرة ، فرأيت فوق المدفأة ناقوسا من الزجاج تحته فأر ميت ممدد على جنبه . واختفت بندقة النور الرمادية . فنظرت إلى جيمس فى هيئة المتسائل . فقال :

ـ إنك لتبدو مندهشا .. ومع ذلك فلم أقم إلا بوضع فكرتك موضع التنفيذ .. وما رأيت ليس إلا كتلة صغيرة من .. إنى لا أجرؤ على أن أسميها مادة .. فلنقل إذا شئت كتلة صغيرة من سيال مضىء يظهر فى الأشعة التى فوق البنفسجة ، فى أعلى الناقوس ، بعد موت الحيوان بإحدى وعشرين دقيقة . فتبلبلت أفكارى إلى حد كبير . و لم أكد أصدق ما رأيت وما سمعت .

ـ حقا إن هذا غريب مدهش يا جيمس ..

وغريب أيضاً أن أحدا لم يفكر هذه الفكرة .. إنه اكتشاف عظيم . ألا تعتقد ذلك ؟ إنى لم أعد أرى شيئاً فى الناقوس .

إننا لا نراه فى الضوء العادى ، وهذا ما يفسر لك كيف أننى ـ ككثيرى من الناس ـ لم نلاحظ هذه الظاهرة فيما مضى .. ولكن طريقتك ، أو إذا شئت الطريقة التى أوحى بها صديقك الطبيعى ، هى التى حالفها التوفيق .

ـ إنى أود أن أرى من جديد .

فأطفأ النور وأدار الآلة ، فما لبث أن رأيت البندقية النورانية تلمع فى خفوت لطيف .

ـ إنى بدأت أعتقد يا جميس أنك سائر فى طريق اكتشاف عجيب لم يدر بخلد أحد .. أتعتقد أنه الشخصية .. كلا ، لا يمكن الحديث عن شخصية فأر ..

أتعتقد أن ذاتية هذا الحيوان تستمر على صورة ما مرتبطة بهذا النور الضئيل ؟

ــ إنى لا أعلم أكثر مما تعلم يا صديقى العزيز ..

وكل ما يمكننى أن أقوله لك ، هو أن ذلك ــ فيما يظهر لى ــ ممكن ، بل مرجح .. وأن فى عزمى أن أعيد التجربة على الإنسان عندما يكون فى حوزتى ناقوس أكبر .. هذا وألفت نظرك إلى أن من حظنا أن يكون السيال أخف من الهواء ، وأن ذلك يتجمع فى أعلى الناقوس ولذلك يكون من السهولة بمكان الاحتفاظ به ، حتى ولو رفع الإنسان الناقوس لإخراج الجثة .

ثم مكثنا لحظات صامتين فى هذا الظلام الدامس ، ننظر إلى البندقية النورانية التى ربما كانت دليلا على وجود كائن خفى .. وأخيراً أضاء جيمس الحجرة .

فقلت :

ــ انه لغريب مدهش حقاً ، أن ظواهر مهمة جدا ، وبسيطة إلى حد كبير مكثت للآن بمعزل عن علم الناس .

ــ أتساءل لماذا ؟ .. أليس ذلك هو الذى حصل بالنسبة لكل الظواهر العلمية عندما تتصفح تاريخها ؟ فكل القوانين الطبيعية موجودة منذ آلاف السنين تنتظر عقلا يفسرها . وحينما كان يترك رجل من هؤلاء الذين يسكنون فى الكهوف حجرا يقع فى النهر ، كان يمكنه كما فعل فيما بعد جالينيو أن يكتشف قوانين الجاذبية .. ولكنه لم يفكر فى هذا .. ثم ما رأيك فى العواصف الموجودة منذ أن صارت الأرض أرضا ، التى كان من الممكن أن تكون حقلا خصبا للتجارب التى ترشد الإنسان إلى وجود الكهربائية ، ولكنهم عللوا وجودها بغضب ز س .. وقد ظل الناس محاطين بمختلف الأشعة التى تملأ الجو من حولهم والتى يستخدمها اليوم علماء الطبيعة عندنا ، هذه الأشعة بقيت خفية لا تدرك كالقوة الحيوية لهذه الفأرة .

ـ مسكينة تلك الفأرة .. أخرجها ياجميس ..
إنى أتألم من رؤية هذه الجثة فى وسط صور هذه الغادة الحسناء .

وبعد فترة تردد ـ سألته : من هذه الغادة ؟

ـ ألا تعرفها ؟ إنها أديت فيلبس ، تلك الفتاة الممثلة التى يتهافت كل قاطنى لندن على رؤيتها فى تمثيل دور أو فيلى .. ألم تشهد تمثيلها بعد ؟ .. ينبغى أن أرافقك ذات مساء .

ـ أخرج الفأرة ياجيمس .

فرفع الناقوس فى حيطة وحذر ، وسحب الفأرة من ذيلها الطويل ولفها فى ورقة ، ثم قال :

ـ يجب أن ننظر الآن هل بقى النور مكانه .

ثم أعاد التجربة . فإذا بالبندقة النورانية تلمع فى أعلى الناقوس .

٨

أصبحت زيارتى لمستشفى القديس برنابية تكاد تكون يومية .. وإذا كنت لم أنقطع عن عملى فى دار الكتب البريطانية ، فذلك لأنى كنت مضطرا إلى الاستمرار فيه ، ثم لأنه لا يمكننى أن أقضى طيلة يومى مع الدكتور جميس الذى لا تترك له أعماله إلا قليلا من الحرية ، ولكن أعمال صديقى أصبحت تشوقنى أكثر مما تشوقنى أعمالى . وكنت انتظر كل يوم بفارغ الصبر الساعة التى حددها لى .

أما فى دار الكتب فبدل أن كنت أقرأ ، أخذت أنظر إلى جيرانى : هاهى ذى فتاة ذات منظار إطاره مصنوع من درقة السلحفاة ، وهاهو ذا هندى قصير ذو شعر مجعد ، على أننى لم أكتف بالنظر إلى جيرانى بل أخذت أتخيلهم على ميزان جريجورى ، وحينما يأتى موعد المستشفى كنت أسرع نحو مدينة المداخن والموانى .

وفى الطريق إلى المستشفى يمر الإنسان بسوق متواضعة جداً ، رأيتها أول يوم زرت فيه المستشفى ، تقام يومى الاثنين والخميس ، من كل أسبوع . فتعودت أن أقف تجاه الحوانيت التى تبيع السمك ، أو الكتب بواقع الكتاب بنس ، أو الأحذية القديمة .. وأحياناً كنت أتحدث مع الباعة وكنت أفضل

من بينهم الحديث مع وليم سلاتر ، ذلك أنه يمتاز برأس جميل تشبه رأس لورد شيخ ، ثم إنه يمتاز بوجاهة طبيعية تدهش . كان يبيع قداحات غريبة ، مركب فيها خنزير يبعث الشرر بساقه المرفوعة . أما الثمن فست بنسات للواحدة . وكان ينادى « اختراع عجيب : قداحات لا يصيبها خلل ، فلا تسلمك أبدا .. لقد بعت أمس كل بضاعتى تقريبا ، ولم يبق منها إلا القليل » .

وفى الواقع لم أره قط يبيع شيئاً منها على الإطلاق ، ومع ذلك فقد كان دائماً على فمه ابتسامة مودة ، وعليه مظهر الثقة بالحياة وكم كان بعيداً عن تفكيرى ، حينما كنت أتحدث معه فى يوم خميس عن كساد تجارته ، أنه سيكون فى الأسبوع التالى موضوعا للتجارب المدهشة الغريبة . غير أن هذا هو ما حدث . فقد أصيب وليم سلاتر بذات الجنب الحادة ، فحمل إلى مستشفى القديس برنابيه فى حالة لا تدع للأمل مجالا . وفى اليوم نفسه أرسل محل تجارى ــ يفخر بأنه يمكنه أن يحضر للإنسان كل ما يريد ــ إلى جيمس الناقوس الذى يغطى الجثة الإنسانية ، والذى كان قد طلبه جيمس قبل ذلك بثلاثة أسابيع .

وفى المساء حينما رافقت جيمس فى أثناء مروره بالمرضى ، فوجئت مندهشا برؤية وجه وليم سلاتر ــ الهادىء الوديع عادة ــ قد التهب من أثر الحمى . وكان يصيح « الاختراع العجيب .. لم يبق منها إلا قليل » ثم رأيته فى الغد فى منتصف الليل على منضدة التشريح .

بدأت أتعود رؤية هذه المناظر التى تتصل عن قرب بالموت ، ولذلك كنت هادئاً نسبياً . أما جيمس فقد كان فى هذا المساء ــ على العكس منى ــ فى حالة تهيج وقد ساعد جريجورى فى إخفاء الناقوس الكبير تحت المدرج ، وكان يخشى أن يكسره الرجل القصير عند حمله معنا لوضعه على المنضدة فوق الجثة ،

وقد عدل الدكتور عن استخدام الميزان ، إذ قد كان من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – أن يوضع الناقوس فى اتزان على مسطح الميزان ، ولكنه استعار مرة أخرى آلة الأشعة فوق البنفسجية . أما جريجورى ، فإنه لم يكن على علم بأبحاثنا الجديدة ، ولذلك ساعدنا وهو ضيق الصدر مضطرب .

وأخيراً تمكنامن وضع المسكين تحت الناقوس الكبير ، ووضع الآلة بحيث تمر أشعتها بأعلى الناقوس . كل هذا أخذ وقتاً طويلاً حتى أنه لم يبق لنا بعد الانتهاء إلا ست دقائق على اللحظة المعينة التى فيها – حسب معلوماتنا المألوفة – سيحدث (شيء ما) فأشار جيمس ، الذي كان ينظر إلى الساعة ، على جريجورى أن يطفيء النور ، فوجهت بصرى نحو أعلى الناقوس الذى لم أعد أراه ، ومكثت على هذاالوضع محاولاً ألا أحيد عنه . فتراءى لى الانتظار طويلاً لا يكاد ينتهى . وبعد لأى قال جيمس :

– دقيقة واحدة .

أخذت أعد فى بطء : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. وعندما وصلت فى العد إلى خمسين رأيت ضباباً يضرب إلى الزرقة تمثل لى أولا فى صورة غير محدودة تمتد على عرض موقع الأشعة ، ولكن هذه الفترة كانت من القصر بحيث لم أتمكن من الملاحظة الدقيقة ، ثم مالبث هذا الضباب أن تركز مكونا كتلة لبنية اللون يبلغ طولها تقريباً أربع بوصات . واتخذ جزؤها الأسفل شكلا أفقياً ، أما الجزء الأعلى فقد استدار تبعا لاستدارة الناقوس .

لم تكن هذه الكتلة جامدة لا تتحرك ، و لم تكن متجانسة ، بل كان يرى بها تيارات بعضها أنصع من بعض ، ولا يمكننى أن أصفها بالدقة إلا إذا طلبت إليك أن تتصور دخان سجائر ، يختلف فى كثافته ولونه ، قد نضدت دوراته

الحلزونية ودوائره حتى تكون منها شي محدد الجوانب ، وما أن تبين ذلك جريجورى حتى صاح فى هلع :

ـ دكتور .. دكتور .. دكتور .. أترى هذه البيضة النورانية ؟

فنصحه جيمس بالتزام السكون . وبينما أنا انتظر إذا بى أرى رأس الدكتور تعترض لحظة مرور الأشعة ، فتضيء ملامحه ، ثم مالت الرأس واختفت فى الظلام ، فشعرت ـ وإن كنت لم أره ـ بأنه مائل نحو الجوهر الغريب الذى أصبح أسيره ، لكى يلاحظه عن كثب ، واتجه تفكيرى إلى وليم سلاتر .. وأخذت أسأل نفسى .. أحقاً بقى تحت هذا الناقوس الزجاجى شيء من هذه النفس الساذجة المستسلمة ؟ أحقاً أن مصدر الحياة لهذه الجثة تركز الآن فى هذا الحيز الصغير ؟ اسجيننا قوة غير مشخصة أم هو وليم سلاتر نفسه ؟ أيمكنه أن يرانا ؟ أشاعر هو بما نفعله به ؟ يفكر الآن فى « الاختراع العجيب .. » فإذا كان ـ ولو على فرض ضئيل الاحتمال ـ شاعراً ، فهل من حقنا أن نأسره ؟

وبينما أنا أفكر فى هذا ، إذا بى أسمع جيمس يقول :

ـ النور يا جريجورى .

فأجأنى النور برؤية الدكتور ، والرجل القصير ذى الشارب المدهون اللامع ، والآلة المغطاة بالقماش الأسود ، والناقوس وقد زالت عنه جاذبيته ، يغطى جثة رجل عجوز ذى شارب أبيض . نظر إلى جيمس هازا رأسه ، فرأيت أنه ينوء بالنجاح الذى أُناخ عليه بكلكله .

أما جريجورى فإنه خاطبنى قائلاً :

ـ أرأيت البيضة النوارنية يا سيدى ؟

فأجاب جيمس فى شيء من الضيق :

لقد رأيناها جميعاً .. والذى أرجوه الآن يا جريجورى هو أن تحفظ فى عناية هذا الناقوس ، فلا تكسره ولا تعكس وضعه الذى هو عليه الآن .. أتعى ما قلت لك ؟

فأجاب جريجورى وهو منفعل قليلاً :

ـ نعم .. ولكن أرجو ألا تحضر ناقوساً آخر ، فليس عندى له مكان .. بل لو رأى الطلبة هذا الناقوس ..

ـ إنى لا أحدثك عن ناقوس آخر .. سنساعدك فى وضع هذا تحت المدرج .

ثم تعاونانحن الثلاثة فى حمله ، وما كان ذلك سهلا . وبعد ذلك تركنا جريجوري الذى انطوى على نفسه والتزم الصمت . وما أن صرنا فى فناء المستشفى ، تحت السماء المكللة بالنجوم ، حتى قلت لجيمس :

ـ إنى أعتقد أن من الواجب أن تنيره فى الأمر بعض الشيء .. فأنت فى حاجة إليه .. أما هذا المساء ..

ـ إنك عجيب يا صديقي ، ماذا تريد أن أقول له ؟

إنه على علم بما أعلمه وما تعلمه ، أيمكنك أنت أن تشرح ما رأينا ؟

فعرفته بعجزى عن ذلك غير أنه يبدو لى أن التجربة تثبت النظريات التى شرحت لى عندما تناولنا العشاء معاً أول مرة .

فإذا كان يأمل الاحتفاظ بجزء من الكائنات الإنسانية بعد الموت ، فإنه بصدد الوصول إلى ذلك . ثم إنى أعترف له بأننى لا أدرى إلام يقوده هذا

النجاح ، إذ إننا لو فرضنا أن ما تحت الناقوس هو روح وليم سلاتر المسكين ، فإنه لا يمكنه أن يتصل به ، وأضفت إلى ذلك أننى لا أعرف له بالحق فى أن يحتفظ بهذا الجوهر ـ الذى نجهل من أمره كل شىء ـ سجينا .

ـ افترض يادكتور أن القانون الإنسانى هو أن سيالا حيويا يخرج حقيقة من الجسم ليمتزج بمصدر هائل للحياة ، فبأى حق نعترض سبيله ؟ ليست نواقيسك خالدة وسيأتى اليوم الذى ينقطع فيه وليم سلاتر ، رغم جهودك ، عن أن يكون وليم سلاتر ، فماذا تكون إذاً نتيجة عملك سوى تأخير وليم سلاتر وإبقائه عبثا فى ظروف ربما كانت بشعة ؟.. إنك وصلت إلى اكتشاف سيمهد لك نوعا من المجد حينما تعزم على نشره .. ولكن ينبغى أن تقتصر من ضرره على ماتضطرك إليه الضرورة « إن فى السماء والأرض لأشياء لم يحلم بها العلم الذى تعلمته ياهوراشيو .. »

فقال جيمس :

ـ إنك تذكرنى أنه ينبغى أن أرافقك ذات مساء لرؤية هملت .. أتمنى لك ليلة سعيدة .

٩

هذا التردد الكثير على مستشفى الدكتور برنابيه كان سببا فى أن أتعرف ببعض أطبائها ، وكثيرا مادعانى جيمس إلى تناول الطعام مع أطباء المستشفى الداخليين ، فكانت الفرصة تتاح للحديث مع جيرانى ، وعلى الأخص الدكتور دجبى طبيب
الأمراض العقلية بالمستشفى ، الذى كان يلذ لى الحديث معه ، ذلك أننى أميل دائما – وإن كنت لا أدرى لذلك تعليلا واضحا – إلى الاجتماع بأطباء الأمراض النفسية ، ويخيل إلى أن خبرتهم بمرض العقول تعطيهم معرفة أوضح وأدق عن الأصحاء ، فحديثهم ينطوى دائما على معلومات ثمينة لشخص مثلى يحاول أن يكون كاتبا ، وأن يفهم طبائع الناس . ثم إن دجبى كان يروقنى أكثر مما يروقنى غيره ، فهو رجل قصير أصلع فى عينيه سمات العقل ، يتحدث بصوت وديع وأسلوب محدد ناشىء عن ذكاء وعلم .

فى اليوم التالى لذلك المساء الذى تحدثت عنه فى الفصل السابق ، وصلت قبل الموعد الذى حدده لى جيمس ، ولما لم أجده أخذت أسير جيئة وذهابا على شاطىء النهر الذى يقع داخل المستشفى ، وقد انتشرت عليه الأزهار ، وهناك تقابلت مع دجبى وكان مرتديا الثوب الأبيض الذى يلبسه الأطباء فقال لى :

ـ أنت وحدك ؟ إنها لمصادفة غريبة ، أرجو ألا يكون صديقنا جيمس مريضا ، إنى لم أره عند تناول الطعام .

ـ إن صحته فيما أعتقد حسنة ، ولكنه لايفرغ من عمله إلا بعد ربع ساعة .

فبدأ جملة ، ثم توقف كما لو كان يتردد ، ثم أخذ يقول :

ـ آه .. هاك ما .. كلا .. ولكن إذا .. بما أنك ستضيع من وقتك ربع ساعة فتفضل إلى مكتبى . كان مكتبه عبارة عن غرفة مفعمة بالضوء الطبيعى ، تطل على الشاطىء ، مملوءة بمختلف السجلات والجذاذات ، ومان جلسنا حتى بدأ يقول :

ـ سيجارة ؟.. ويسكى ؟.. لا ؟.. اذاً أرجو أن تعيرنى سمعك قليلا ، فإنى أريد أن أنتهز الفرصة التى أتاحت لى لقاءك متفردا لأتحدث معك عن جيمس . إنك صديقه ، وفى الوقت نفسه أنت أجنبى عن المستشفى ، فربما أمكنك لذلك أن تقوم لنا بأداء مكرمة جليلة .

ـ إنى أكون سعيدا لو أمكننى القيام بما تريد .. ولكن كيف ؟.. إن تأثيرى فى جيمس ..

ـ سأحدثك بالموضوع .. ولكن ينبغى قبل هذا أن أنبهك إلى أنه سر لايقال لشخص ما ، بل ولا إلى جيمس نفسه . أتعاهدنى على هذا ؟

نعم ..

. حسن .. يلوح أنك على علم ببعض التجارب الخفية التى يقوم بها جيمس مستخدما فى ذلك جثث المرضى الذين يموتون فى هذه المستشفى ، وذلك للوصول إلى هدف غير معروف .. أليس كذلك ؟

ـ ياله من استجواب .. انني لا أستطيع الإجابة يادكتور .. وأرجو ألا تعتبر هذا إثباتا أو نفيا .. فلست أعنى بكل بساطة إلا أن أعمال صديقي إنما تصدر عن وحى ضميره فقط .

فأجاب الدكتور مبتسما :

ـ إنى أقر وجهة نظرك ، ولكنى متأكد بأننى أقوم بواجبى حينما أخبرك أن ولاة الأمور فى المستشفى قلقون إلى حد كبير .. نعم إن البحث لم يجر بعد فى هذا الموضوع ، ذلك لأن كل من هنا أصدقاء جيمس ، ولأن التجارب التى يقوم بها تبدو ـ حسب وصفها ـ غير مضرة وإن كانت لاتنسجم مع المنطق .

فقلت :

ـ حقيقة إنه إذا كان يباح تشريح الجثث فإنه يباح من باب أولى أن ..

فقال :

ـ خذ حذرك إنك ستصرح بأكثر مما ترغب ..

أرجو أن تدرك أنه لو وصلت هذه الإشاعات ـ لا إلى أطباء كما هو الأمر الآن ـ بل إلى أشخاص أقل تسامحا كبعض أعضاء مجلس المراقبة ، فمن الممكن أن ينال صديقنا متاعب خطيرة .. على أن هذا أضعف البواعث التى تدعونى إلى الحديث معك فى هذا الشأن .. إنى أخشى على الأخص .. ستقول فى نفسك . هؤلاء الأخصائيون يرون فى كل شيء موضوعا يدخل فى دائرة تخصصهم .. فليكن .. إنى أخشى على الأخص أن يؤثر بعض الأبحاث على صحة جيمس العقلية ، ولذلك يعنينى الآن أن أتحدث إليك ـ إذا سمحت بذلك ـ عن حالته النفسية ، فالظروف ـ كما قلت سابقا ـ وضعتك منه بمكان يمكنك من إسداء الجميل نحوه .. أتعلم شيئا عن تاريخ حياته الشخصية ؟

ماذا تعنى بتاريخ الحياة الشخصية ؟ إنى عرفته أثناء الحرب .. ولا علم عندى بما حصل له قبل ذلك .. فضلا على أنى لا أعلم شيئا عن حياته العاطفية منذ أن جمعت الحرب بيننا ، وليس فى هذا غرابة ، فهو إنجليزى لحما ودما ، وككل انجليزى لا يكاد يتحدث عن هذه الأشياء .

سأرشدك إذاً إلى ما أعتقد أن الضرورة تقضى بأن تعرفه .. تزوج جيمس فى مارس سنة ١٩١٤ بفتاة دانماركية ذات جمال رائع ، وكانت تتعلم الطب فى لندن . ولقد أتاحت لى الظروف أن أعرفها عن كثب . إنها فتاة ذات ذكاء مدهش ، صريحة ، كريمة ، ولكنها لم تألف قط الحياة الإنجليزية و لم تحب مطلقا جيمس ، أما هو فقد كان يعبدها ، وإذا كانت قد تزوجت به ، فما ذلك ــ على ما أعتقد ــ إلا رحمة به ورأفة بعواطفه الجياشة .. وحينما سافر جيمس فى أواخر سنة ١٩١٥ وجدت هيلدا جيمس نفسها وحيدة ، وشعرت بمرارة العزلة ، فعادت إلى قطرها ، وهناك تقابلت مع شاب حسن الهيئة والمنظر ، فراقها ، فكتبت إلى جيمس فى صراحة ولكنها خالية من كل مجاملة .. وطلبت إليه تسريحها . فثار ورفض . وفى يوم ما ــ بينما كان فى جبهة القتال ــ علم أنها ماتت فى ظروف غامضة ، محزنة ، قاسية ، لا أعرفها فى وضوح .. فلم يشعر بالسلوان قط منذ ذلك الحين .

ــ حقا إن الرجال صناديق مقفلة يا دكتور .

بينما كنت أعيش معه فى بلجيكا ، تحت سقف واحد ، كان الألم يعتلج فى قلبه بسبب هذه الحادثة المحزنة ومع ذلك فلم يبح لى بشىء منها .

ــ إنى أعترف لك بأن هذا العجز عن التعبير عن عواطفنا هو ــ فى الوقت

نفسه — مصدر القوة فى أخلاقنا الوطنية — كانجليز — ومصدر الخطر الذى يهددنا .. إننا لا نسلم أنفسنا بألسنتنا ، بل ننطوى على أنفسنا وننكمش .. وإذا كان الشعب يشعر بهذا ، ويفتخر به فى سذاجة .. واذا كان هذا جديرا — بالتقدير ، فإنه مع ذلك خطر بالنسبة للصحة العقلية .. أما جيمس الذى تتبعت حالته عن كثب فقد أهمنى أمره ، وفزعت من أجله مدة بضع سنوات بعد الحرب .. فقد كان يعيش حينئذ فى وحدة ، وإحساس حاد بإملاق عاطفى مدقع يصعب عليك كفرنسى — فيما أعتقد — تصوره .. ولا أدرى أكان يبقى عقله لو لم يكن يعمل فى المستشفى عملا يروقه .. ثم انه منذ عامين — بينما كان يقضى إجازته بين أسرته فى ويلتشير — إذا به يدعى على عجل ليرى فتاة مريضة ، لأن طبيب الناحية كان غائبا . كانت هذه الفتاة ممثلة ..

— أليست هى الآنسة أديث فيليبس ؟

— آه ! هل تحدث إليك عن الآنسة فيليبس ؟

— كلا .. أو بعبارة أدق ، حدثنى عنها بما لا يكاد يذكر .. ولكننى رأيت صورها فى حجرة جيمس فسألته من تكون ؟ .

— رأيت إذاً أنها رائعة الجمال ، ولكنك لم يمكنك أن تلاحظ التشابه القوى بينها وبين الغادة التى كان قد بنى بها .. وما من ريب فى أن هذا هو السبب الذى جعله يتعلق بها منذ اللحظة الأولى ، وأخذ تعلقه يزداد قوة وعنفا على توالى الأيام ، ولم يفتر قط .. لا يذهب خيالك إلى أن صلته بها كصلة الرجل بزوجته ، فهى لا تزال عذراء ، تعيش مع أبيها جيرالد فيليبس ، الذى كان يعد هو نفسه أحد كبار ممثلينا . وما من شك فى أنها كانت تقبل على الزواج لو لم تكن صحتها ضعيفة جدا ، حتى أننا — نحن الأطباء — يصعب علينا

تعليل مقاومتها وقدرتها على الاستمرار فى مهنتها .. ما رأيها فى صديقنا جيمس ؟ أتحبه ؟ أتعطف عليه فقط ؟ أم أن أمره لا يهمها فى قليل ولا كثير ، إننى لم أرهما معا ، وكل ما أعلمه عن ذلك ، هو أنه هائم بها هياما لا أمل فيه ولا رجاء ، وأنه يقضى بجانبها كل ساعات فراغه ، وإنه ـــ لعلمه بأنها مريضة ـــ يعيش فى فزع دائم مخافة أن تفاجئها المنية .. ذلك كل ما أريد أن أقوله لك لإرشادك وهدايتك نوعا ما فى علاقتك به .. ولا أريد أن أضيف إليه شيئا ما مما استنتجته من جميع هذه الأحداث .. ذلك لأنى أعلم ائتلافكما البالغ ـــ وأعلم ـــ على أسفى ، تجريبيا ـــ أنه من الخطر أن يبذر الإنسان فى وسط سريع التأثر أى إيحاء ، إذا إنه يؤول تأويلا سيئا .. اعتذر عن هذه الصراحة .

ـ أشكرك يا دكتور دجبى ، ولكننى لا أدرك جيدا ما تريد أن تقول .. أى دور ترغب أن أقوم به ؟ ليس لى كما تعلم أى سلطة على جيمس ، ثم إننى لا أعرف الآنسة فيليب فضلا عن أن إقامتى فى انجلترا أصبحت وشيكة الانتهاء .. ولم يعد فى إمكانى ـــ ولو رغبت إطالتها ـــ وإذا ما سافرت فمن المحتمل جدا أن تنقطع صلتى بجيمس .

كلا هذا صحيح وأنا لا أطلب إليك شيئا محددا ، واضح المعالم .. وما أردت إلا أن أنيرك فى الموضوع حتى لا تسير على غير هدى فى طريق غير معبد .. والآن اقض ما أنت قاض .. فإذا كان يمكنك فى قليل من الزمن أن تصرف صديقنا عن أبحاث تحيد عن الصراط المستقيم ، فإن ذلك يكون ـــ فيما اعتقد ـــ مكرمة تسديها إليه ، بل مكرمتين .. ها قد آن الأوان لتذهب إليه ، على عجل ، فقد استمر الحديث بنا أكثر من ربع ساعة .

وحينما تركته ووصلت إلى غرفة جيمس سمعت صوت الجرس يدق : اثنان ــــ أربعا .. اثنان ــــ أربعا .. فعلمت أن جيمس دعى إلى إحدى حجرات المرضى ، فلم يكن لى بد من انتظاره ، فلاحظت حينئذ أن من بين الصور الموضوعة على المدفأة ، واحدة تمتاز بكبر حجمها ، واذا أمعنت النظر فيها رأيت أنها صورة غادة أصغر سنا وأضعف بنية من صاحبة سائر الصور .

وإذا كنت لم ألاحظ هذا أول مرة ، فذلك لأنها تشبه الصور الأخرى شبها قويا يكاد يصل إلى حد التطابق .

١٠

حينما اقترح على جيمس ، منذ عدةِ أيام الذهاب لرؤية هملت ، لم أعر دعوته العناية التامة ، فالحياة التى أحياها معه — بين المرضى ، وعلى صلة بأبحاثه — كانت تبدو لى — فى جمالها واختلاف مناظرها — أنها لا تقل روعة عن قصص العباقرة التى يمتزج فيها الألم بالمرح .

ولكن بعد المحادثة مع دجبى استولت على رغبة حادة فى معرفة أديث فيليبس ، فذكرت جيمس بوعده ، فعرفنى بأنه سيطلب الاحتفاظ بمكانين حينما يتاح له أن يفرغ ذات مساء من عمله ، وفى أثناء ذهابنا إلى المسرح أنبأنى بأن الفرقة التى تمثل ، فرقة شعبية ، وقد أعجب النقاد كثيرا بالشاب الذى كان يمثل دور هملت ، وبممثل عجوز غير معروف كان يقوم بدور بولينيوس ، ولكنهم أعجبوا على الأخص بالآنسة أديث فيليبس فى تمثيلها دور أفلى . هذا الإعجاب البالغ جعل مدير ويست اند يقدم للفرقة صالة التمثيل . ومنذ ذلك الحين تهافت كل سكان لندن على رؤية تلك الفرقة وأصبح شكسبير « مودة » وكثير من الأشخاص يقولون عند خروجهم أنهم رأوا هملت أول مرة . وهذا صحيح بالنسبة لأغلبهم ، على أن الإنجليز يكتشفون من جديد هملت كل خمسين عاما ويعجبون به ، وما كانت أديث فيليبس إلا متابعة لجهود أبيها الذى

بدأ منذ نصف قرن أعني منذ سنة ١٨٨٠ يوحى إلى أهل لندن بعبقرية الكاتب الذى لا يزال مجهولا : وليم شكسبير .

كان هملت هذا المساء شيئا جديدا جدا بالنسبة لى وبالنسبة للنظارة الذين كان جيمس يسخر منهم ، فقد اتبع الممثلون خطة حكيمة بسيطة ، وإن كانت لا تتبع إلا نادرا ، وهى عدم حذف شيء مما كتبه شكسبير . وكان الشاب الذى يمثل أمير الدانمرك يقوم بدوره فى قوة وفى بساطة طبيعية ، وحينما تحدث عن هذا العالم « الممل ، الخلق ، العقيم » خيل إلى أنه قريب إلى أنفسنا قرب بارس الشاب أو قرب بنجمين كنستان . فقد كانت تلك صورة الشاب الباقى على الدهر ، وما إن ظهرت الآنسة اديث فيليبس حتى رأيت أنها تصور هى أيضا صورة الفتاة الباقية على الدهر ، ولقد أظهرت فى أول دور ظهرت فيه مع بولونيوس مزيجا من الحياء ، والجرأة الساذجة ، والخضوع الذى يشبه خضوع الأطفال ، والسعادة التى بعثها علمها بأنها محبوبة .

هذا المزيج المنسجم راقنى إلى حد بالغ .

فقلت لجيمس فيما بين المنظرين :

ـ حقا إن صديقتك لرائعة الجمال .

فظهرت عليه ملامح السعيد المغتبط ، وقال :

ـ يمكنك أن تعبر لها عن ذلك بنفسك عما قريب ، فقد أنبأتها بأننا سنتناول العشاء معا .. أراقك التمثيل ؟

ـ أجل لشد ما راقنى .. إنه لجد بديع .. غير أننى لا أغمض الطرف عن ملاحظة واحدة : هى الشبح ، فقد أخلف ظنى ، لم جعلوه يتحدث من وراء حجاب ؟ .. كان يجب أن يصرخ « الخلد العجوز » من تحت السيوف : أقسموا .. أتذكر كل ما قاله جوته خاصا بذلك فى « ولهلم مايستر » .. ؟ يرى

جوته أن الشبح يجب أن يتحرك تحت الأرض ، وأن شعلة صغيرة ، تخرج من الأرض ، تتحرك معه فترشد إلى مكانه .

فنظر إلى جيمس وعلى فمه ابتسامة لا تكاد ترى وقال فى صوت خافت :

ـ الشعلة الأودية ؟ .. إنى لأسأل نفسى عما يفعله الآن شبح وليم سلاتر ؟

ـ نعم ، وإنى لأريد أن أوجه إليك نفس السؤال ألا يزال تحت الناقوس ؟

ـ نعم لقد رأيته مساء الأمس أيضا ، إن السجن الزجاجى يخلص لنا فى الاحتفاظ به .

ـ ألا تريد يا دكتور أن تمنحه الحرية ؟

فوضع إصبعه على فمه يشير بالتزام الصمت . ذلك أن إحدى بائعات المسرح كانت أمامنا تعرض المثلجات وعلب الشكولاته ، ثم دق الجرس يعلن العودة إلى التمثيل ، فعدنا إلى الاستغراق فى عالم شكسبير .

سيعجب قوم من غير ما شك فى تحدثى بهذه التفاصيل عن تمثيل « هملت » أثناء قصة تختلف عنها كل الاختلاف ، ولكن لهذا سببين قويين : أولهما ـــ أننى فى ذلك المساء عرفت الآنسة اديث فيلبيس وهى ـــ كما سترى ـــ تقوم بدور مهم فى الموضوع الذى أذيع سره هنا . وثانيهما ـــ أن جو « هملت » بقى ـــ ولست أدرى لماذا ـــ مرتبطا بذكرياتى عن الدكتور جيمس ، فضلا عن أنه فى ذلك المساء أتيحت لى هذه الفرصة الوحيدة لتقدير عمق عواطف جيمس الخفية البائسة ، التى تختبىء فى شغاف هذا الكائن المفجوع الذى لا يدع ما بين جنبيه يظهر للناس . وحينما أخذت الفرقة فى القيام بدور الممثلين ، ورأى هملت أن من المخزى أن ممثلا يمكنه أن ينتحب وأن يصير

شاحب اللون من أجل انفعال مفتعل ، بينما هو يمكث هادئا مع ما به من عاطفة جياشة .. حينئذ رأيت جيمس يميل إلى الأمام فاغراً فاه كما لو كان هو نفسه على وشك أن ينشد ما يقوله الممثلون من شعر . وفى أثناء الدور الخاص بجنون أوفلى رأيت أول مرة — وهى الواحدة طوال عشرتنا معا — دمعة تسيل على خده . حقا لقد مثلت أديث فيليبس دورها فى قوة أثارت الرحمة وبينما كانت عيناها تنظران إلى عالم خيالى ، كانت تغنى وتتحدث بصوت يسير على نسق واحد لا يتغير ، لكنه وديع بالغ غاية الرقة ، وكانت تقدم أزهارا تراها فى عالمها المجهول الخيالى ولا وجود لها فى أعيننا « ها هى ذى الأزهار . إنها للذكرى . أرجوك يا حبيبى العزيز أن تتذكر ... » لقد ذكرتنى أنا أيضا بأشياء كثيرة جميلة مضت وانتهت .

فقال لى جيمس فى فترة الراحة :

– أتعلم سر إبداعها فى تمثيلها ؟ إنها تبعث الشعور « الذى كثيرا ما تبعثه ذوات الجنون الحقيقى » بأن الجنون ما هو إلا ملجأ يكاد يكون عن شعور .. لم تعد أوفلى تريد أن ترى هذا العالم البشع ، فخلقت لنفسها عالما آخر هو عالم الأزهار والذكريات وستتحدث عنه بصوتها الوديع المستمر إلى النهاية .. الواقع أننى لم أر فى حياتى مسرحا تتجلى فيه الناحية الإنسانية ، وينسجم مع الطبيعة البشرية ، أكثر من هذا المسرح .

بعد أن غطى المسرح بالموتى وانتزع الشاب فور تنبراس هملت محمولا على أكتاف أربعة من الضباط ، وبعد أن صفق الشاب طويلا وضرب على الموسيقى النشيد الوطنى الانجليزى ، خرجنا صامتين .

وبعد فترة قلت :

يا لها من مذبحة بشرية مريعة .

كما ترى فى الحياة الواقعية .. ألك فى مرافقتى إلى الجهة الخلفية لنتقابل مع أديث أمام الباب الآخر .. ؟

إنها — بدون شك — تأهبت للخروج ، فقد كانت عندها الفرصة الكافية لاستبدال ملابسها منذ أن بدأ الفصل الأخير إلى الآن .

ولما وصلنا وجدنا أنها فى انتظارنا عند بواب المسرح . لقد كانت فى غاية البساطة ، وما إن وجهت إليها بعض عبارات الثناء حتى ظهرت عليها — فى سذاجة — علامات الغبطة ، مع أن نقاد لندن وجهوا إليها ثناء عاطرا قائلين إنها ممثلة عبقرية ، وقادنا جيمس إلى مطعم صغير فرنسى ، وفى أضوائه المتألقة أمكننى أن أرى الآنسة أديث فيليبس فى وضوح . لم تكن فى جمالها الواقعى تقل عنها فى الصور ولكنها كانت شاحبة إلى حد يثير الدهشة ، وكانت مرحة أثناء تناول العشاء . أما أسلوبها فى الحديث فقد أخلف ظنى ، ولكن ألسنا دائما نجد مثل هذا الشعور أمام ممثلة شاهدناها تمثل فى مسرحية العباقرة ؟ إننا — عن غير شعور منا — نلبس الممثلة دائما روح شكسبير أو موسيه ، ونكاد نأمل ونرجو أن تكون فى الحياة الواقعية جولييت أو دسدمون أو كامى ، ولكننا لا نلبث أن نجد طفلة مثل اديث فيليبس ، وما من شك فى أننى حينئذ لم يكن عندى استعداد كاف لاكتشاف ما بها من مثالية ، ولكننى الآن أتمثل ما كانت عليه أديث فيليبس من صدق شكسبيرى دقيق لاحظه جيمس وأدركه من عهد بعيد . لكم تأثرت بالإعجاب الرقيق الحنون الذى يظهره جيمس نحوها .

وما لبثنا أن افترقنا حينما غادرنا المطعم ، ذلك أنه أراد أن يرافقها إلى حيث يوجد أبوها قبل أن يتخذ طريقه إلى المستشفى .

١١

إذا كنت قد وفقت فى إعطائك فكرة عن أخلاق جيمس ، فإنك تكون قد أدركت أننا لم نثر فيما بعد موضوع اديث فيليبس ، ولقد حاولت غير مرة أن أثير فى الدكتور الرغبة فى الحديث بأخذى صورة من صورها التى على المدفأ ، وتحديقى فيها بانتباه .

فلم أنجح فى محاولتى . وإذا كنت قد أسفت لهذا ، فليس ذلك ناشئا فقط عن الرغبة المكبوتة فى حب الاستطلاع ، وإنما لأنى كنت ولا أزال أعتقد ، أنه لو استطاع صديقى أن يشرح عواطفه الغامضة الحزينة التى ينوء بها ، لخفف ذلك آلامه وبؤسه . على أننى حاولت غير مرة — كما وعدت الدكتور دجبى — أن أصرفه عن تجاربه ، فوجهت انتباهه إلى أن جريجورى لم يعد — كما كان سابقا — طوع أمره ، وأن هذا الرجل القصير ، لم يعد يساعدنا إلا وهو ضيق الصدر بنا حذرا ، بل إن أوراق النقد التى كان جيمس يبذلها له والتى كانت تزداد ثم تزداد أصبحت لا تكاد تكفى الآن لتحريك شفتيه بكلمة شكر . ولكن هذه العوارض المقلقة لم تكن لتخفى على حصافة الدكتور ، ومع ذلك فلم ينقطع عن الذهاب إلى المدرج ، ولعل له عذرا ، فما من شك فى أن أبحاثه أخذت اتجاها غريبا يشوق جدا وإنى — أنا الذى ألومه — لم يكن

فى مقدورى الامتناع عن متابعة تلك الأبحاث فى حرارة وتحمس .

كان من الصعب تحريك هذه النواقيس الزجاجية ذات الحجم الهائل ، والاحتفاظ بها ، فعرضت لجيمس فكرة بسيطة ولكنها موفقة : هى أن يركب فى أعلى النواقيس كرة زجاجية يبلغ قطرها أربع بوصات تقريبا تتصل بالناقوس بواسطة أنبوبة زجاجية . وحينما استخدمت الأشعة فوق البنفسجية لرؤية ما يحدث ، شوهد — كما هو متوقع — أن السيال ارتفع من الناقوس إلى الكرة ، فأصبحت كلها تقريبا مضيئة بينما بقى الناقوس مظلما ، وأنه لمن السهولة بمكان فصل الكرة الزجاجية عن الناقوس ولحمها ثم الاحتفاظ بـ « الطاقة » التى نحن بصدد البحث عنها ، وكلما اقتضى الأمر يمكن لحم أنبوبة زجاجية جديدة بالناقوس تعلوها كرة ، وبذلك يمكن استخدام ناقوس واحد ما دام محاطا بالعناية حتى لا يكسر .

هذه الكرات الزجاجية الصغيرة ، التى يسهل حملها ، احتفظ بها الدكتور فى حجرته الخاصة . وحتى لا يختلط عليه الأمر فى التمييز بينها ، ألصق بكل منها بطاقة كتب عليها اسم الشخص الذى شع منه ما تحتويه الكرة ، وتاريخ الحادثة التى يسميها الآخرون الموت ، ويسميها جيمس التحول . كانت الكرة رقم ١ لوليم سلاتر ، ورقم ٢ للسيدة بريم بائعة السمك الثعبانى ، ورقم ٣ لبحار نرويجى ، ويبلغ عدد الكرات جميعها سبعا ، موضوعة الواحدة تلو الأخرى ، على رف خصص لها فى حجرة جيمس . لقد كنت أمضى الساعات فى النظر إليها ، وهى أمامى تشبه فقاقيع الصابون صيرتها صلبة معجزة من المعجزات فجأة . وفى كل منها يتحرك تياران مستطيلان يمتزج فيهما اللون الأزرق باللون الأخضر ، أحدهما مسنم والآخر مجوف ، واستدار كلاهما مع الكرة . لم يكن هذا — على ما أعتقد — سوى صورتى السماء والأشجار

المنعكسة على زجاج النافذة ، غير أنى أحيانا كنت أعتقد أنى أرى داخل الكرات أشكالا تدهشنى ، وحينما كان يجدنى جيمس منكبا على الكرات أتأملها كان يقول :

ــ آه إنك تنظر إلى « نفوسى » .

ــ إنى أريد من كل قلبى أن تمنحها الحرية يادكتور .

ــ فيما بعد . فيما بعد .. حينما أعلم عنها كل ما يمكننى أن أتعلمه منها ..

كان جيمس لا يفتأ بين آونة وأخرى يتحقق بواسطة الأشعة من عدم هرب « نفوسه » أو بالأحرى ، كما كان يقول« أطيافه السيالة » من خلال سجنها الشفاف ، فلا يلاحظ أى تغيير إذ يجد فى كل مرة الضوء اللبنى نفسه ، والحركات الدائرية بعينها ، وما من شك فى أن حياة حقيقية ، وإن كنا لا ندرك كنهها ، باقية داخل الكرات .

اكتشف جيمس أن للسيال تأثيرا واضحا فى الأشياء ، فحينما يقرب من الكرة لوحة من مادة عازلة ، فإنها تضىء فى خفوت . هذه الظاهرة جعلتنى ، فترة طويلة ، آمل حدوث الاتصال بالأطياف . إن الضوء الذى تحدثه الكرات على اللوحات يتغير باستمرار ، ألا يمكن المخاطبة بواسطة طول هذه الفترات الضوئية وقصرها ؟ كل محاولاتى لشرح هذه العلامات الضوئية ذهبت مع الريح ، أما جيمس فإنه حاول أن يؤثر فى أروحه ، مرة عن طريق أشعة إكس ، وأخرى عن طريق أشعة الراديوم .

هذه التجارب التى لم تؤد إلى نتيجة كان لها تأثير سيىء فى نفسى . وقد كنت أشعر بأنها عديمة الجدوى ، فضلا عن أنها قاسية شديدة القسوة ، ولا غرابة فى أن نستعمل هنا كلمة « القسوة » إذ إننا نجهل كل شيء عن أثر هذه التجارب على جوهر من الممكن أن يكون حساسا ، ولقد ناقشت

جيمس ، غير مرة ، محاولا صرفه عن ذلك فلم أصل إلى نتيجة ، ثم عدنا إلى مناقشات كانت من العنف بحيث خيل إلى حينا أنها ستضع حدا لصداقتنا ، وذلك لسبب تجربة أكثر بساطة من سابقاتها ، ولكنها بدت لى أكثر قسوة وأشد فظاعة .

فقد اضطرتنى أبحاثى للذهاب إلى دار كتب فى اكسفورد فغبت يومين عن المستشفى ، وحين عودتى ذهبت لزيارة صديقى فوجدته بصدد اختيار كرتين جديدتين أضيفتا إلى مجموعته أثناء غيبتى ، إحداهما تحمل رقم ٨ والثانية رقم ٩ ، وأخبرنى جيمس أن رقم ٨ فتاة راقصة انتحرت ، اسمها أجاتالين ، أما رقم ٩ فهو روسى ، اسمه ديمترى دوسكف ، مات بالسرطان .

ولكنى دهشت حينما رأيت الكرتين . ذلك أن جيمس بدل أن يفصل الأنبوبة عن الكرة ، فتعود تامة التكور ، ابقى الأنبوبة واكتفى بأن لحم نهايتها .

فقلت :

ـ هل اتخذت طريقة جديدة .. إننى لا أحبها .. إنك بذلك تزيل كل ما لفقاقيع الصابون من جمال .

ـ إنك لا تدرى ما سأفعل .. وسترى أننى محق فى هذا العمل ، بل إنى لأعتقد أنك ، أنت الذى تشكو دائما من احتمال وجود القسوة فى حبس روح منعزلة عن غيرها ، ستكون مسرورا منى .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ إن الأمر فى غاية البساطة .. هب أننى أصل الأنبوبتين بعضهما ببعض ، وأجعل الكرتين بحيث تكون إحداهما فوق الأخرى فماذا يحدث ؟

ـ لست أدرى .. وإنما يرجح أن يمتزج السيالان ويشغلا الفراغ كله .

ــ ذلك ما يخيل إلى أيضا .. وحينئذ لا تكون هناك روح وحيدة منعزلة ، بل روحان أصبح اتحادهما وألفتهما بحالة لا تبيح العلاقات الواقعية إدراكها ..

ماذا بك ؟ ألا تعتقد ذلك ؟

ــ لست أدرى ولكن تلك الفكرة تبدو لى وحشية ، بل إنه لا يمكننى أن أتصور أنك أجلتها بذهنك ..

كيف ؟ أتتخذ محض المصادفة هاديا لك فى اختيار كائنين ليس بينهما سابق معرفة ، بل ربما ينشأ بينهما كره وبغض ، ثم تفرض عليهما نوعا من الامتزاج والخلطة القوية التى تصل إلى مالا يمكن تصوره أو تخيله ؟ .. وكل هذا لا لعلة ، وإنما لمحض حب الاستطلاع .. على أن ذلك ليس لحب الاستطلاع ، فماذا ستعلم من نتيجة محاولتك ؟ ..

لاشىء . ذلك أنه على فرض أننا بصدد كائنات حساسة شاعرة ، فإنك عاجز كل العجز عن الاتصال بها .

كان جيمس ينظر إلى فى رزانة يشوبها الحزن ثم قال :

ــ إنك بالغت فى ظلمى .. إنك تعلم أننى لست رجلا شريرا .. كلا .. لقد ذقت الآلام عن كثب ، وشعرت بمرارتها ، فلن أكون سببا لإثارتها عند الآخرين .. وإذا كان الآخرون يلوموننى على هذه التجارب ، فليس من المستحيل أن ننتحل لهم العذر ، ولكن إذا أتى هذا اللوم منك .. كان ينبغى أن تفهم منذ عهد بعيد أننى ما كنت لاشتغل بهذه الأشياء الخطرة لو لم يكن عندى الأمل فى أنها ستنير السبيل إلى مجهولات لا يحصيها العد .. أحسن بى الظن ، إنى أعدك بعدم الاستمرار فى هذه الأبحاث بمجرد عثورى على ما أنا بصدد البحث عنه .

ـــ **كلا ياجيمس** إنى أرجوك رجاء حارا أن تدع الأمور على ما هى عليه .. اعدل عن هذا .. سأنبئك بأمر كان يجب أن أخفيه عنك . إنى أؤكد لك أنه إذا لم تنصرف عن اتباع هذه السبل الخطرة من نفسك فسيجبرك الآخرون على تركها فأجاب بسرعة :

ـــ آه . هل حدثوك بشىء ؟ ذلك من الأسباب التى تدعو إلى الإسراع فيما أنا بصدده .. وسأقوم بهذه المحاولة مباشرة .

إنى لا أوافقك على ذلك .. ووداعا .

خرجت ، وما أن وصلت إلى الشارع حتى أسفت على ما قلت .

١٢

تلقيت فى صباح الغد بالفندق الرسالة الآتية « صديقى العزيز » ، أرجو ألا تدع العناد يستولى عليك ، فإنى أربأ بك وبنفسى عن ذلك . ولقد حررت من توليتهم بعنايتك ، فاحضر لأنك الشخص الوحيد الذى يمكننى أن أتحدث إليه عن تجاربى .

وأنا فى حاجة إلى الحديث عنها ، على أنك تتأجج شوقا إلى معرفة ما حدث . صديقك هـ . ب . جيمس » .

وما أن قرأت الرسالة حتى قفزت فى سيارة صارخا فى وجه السائق : « مستشفى سان برنابيه » وحينما وصلت أنبأنى البواب ، الذى أصبح صديقا لى ، عن موضع جيمس الذى كان قد دعى منذ قليل إلى أحد الأواوين . فصعدت ولمحت – من بعد – وجهه الحزين يضىء حينما رآنى ، ثم أقبل نحوى وأخذ بذراعى فى مودة قائلا فى صوت خافت :

ليستـرح بالك فقد كسرت الكرتين .. غير أننى أسفت لغيابك وسأشرح لك السبب بعد قليل .. انتظرنى هنيهة .

ثم مضى خلف حجاب أقاموه حول سرير ليكشف على امرأة مريضة ،

فمكثت أنتظر ، وما أن مضت بضع دقائق حتى أتى وقادنى إلى السطح المطل على النهر .

ــ وإذاً ياجيمس ؟ أأدت التجربة إلى لاشىء ؟

ــ لاشىء ؟ كلا .. ولكنها أدت إلى نتيجة غربية جدا غير أنها محزنة .

ــ محزنة ؟ إنك لتبعث فى نفسى الرعب .. ماذا حدث ؟

ــ ليس فى الأمر خطورة .. ألم نعتقد كلانا أن سيال الكرتين سيشغل كل المكان ؟ لقد تبينت أن هذا خطأ ، فإنى حينما عرضت الكرتين الملتحمتين ببعضهما للأشعة لم يضىء منهما إلا واحدة هى التى وضعت إلى أعلى .

ــ إن هذا لغريب .. فكيف تعلله ؟

ــ إنى لا أعلل شيئا ياصديقى .. إنى لا أعلل قط شيئا وإنما ألاحظ .. إذا ، اجتمع سيال الكرتين فى الكرة العليا .. حسن .. والآن قل لى .. أتعتقد أن ضوء هذه الكرة ، ازداد عن المعتاد لمعانا أم نقص ؟

ــ **ازداد طبعا إذ إنه اجتمع ..**

ــ كلا ياعزيزى وهذا هو المحزن .. بل لقد كاد الضوء أن ينعدم .. ماذا تعنى تلك الظاهرة من معنى عميق لا ندركه ؟ .. وعلى أية حقيقة عاطفية أو روحية تدل ؟ .

من المحتمل أن يجهل كلانا ذلك إلى الأبد .. ولكننى ــ أمام هذا النور الكابى الذى يوشك أن يكون رصاصيا ، وهذه التيارات التى أصابها الضعف ــ وأصبحت بطيئة ، فكرت فى ثورة ضميرك ، وشعرت بعدالتها شعورا لم أكن أجده فيما مضى .. وقلت لنفسى : إن احتمال كونى السبب فى تعذيب كائنين ــ مهما يكن هذا الاحتمال ضعيفا جدا بحيث لا يكاد يبلغ واحدا فى المليون ــ

يكفى لأن يكون باعثا على إطلاق الحرية لهما .. ويمكنك أن تتخيل الفترة الغريبة المؤلمة التى قضيتها نهبا لهذا التفكير ، والتى أخذت أبدأ فيها وأعيد جملة صاحبنا هملت « الموت نوم فحسب » وقلت لنفسى : « أنه بعد هذه الحياة التى ترهق الإنسان بالتعب ، يكون من القسوة ألا ينعم الشخص بالنوم والراحة » .. وأخيرا اخذت قدوما كسرت به الأنبوبة . ثم غيرت وضع الكرة .

وهل أصبحت فارغة ؟ بالطبع .

ـــ آه ، خيرا فعلت .. إننى سعيد بهذا ، وسأكون أكثر سعادة لو وعدتنى بأن تقف عند هذا الحد ..

وبما أنك وصلت فى هذه الأبحاث إلى نقطة مهمة ، وبما أن أبحاثك أصبحت واضحة المعالم محدودة ، فإنى لا أرى لك بعد ذلك إلا أن تسلك سبيلا من اثنين : فإما أن تذيع هذه الأبحاث وأن تجربها من جديد بمشهد من العلماء ، وإما أن تعدل عنها لئلا تضيع بدون جدوى منصبك وأصدقائك .

أما فيما يخصنى فإنى – على أى وجه – سأفارقك آسفا .. ذلك أن أعمالى تقترب من نهايتها ، ولا يمكننى أن أمضى حياتى بانجلترا . سأغادر انجلترا بعد خمسة عشر يوما وأستطيع أن أذكر لك أننى أغادرها مطمئن النفس لو أقسمت ..

ـــ لاتكن عاطفيا ياعزيزى .. فأنا أعلم أنك بعد أن تقضى بفرنسا خمسة عشر يوما ستنسانى نسيانا مطلقا ..

ولكنك على حق فى رأيك بأنه من العبث الاستمرار فى إجراء تجارب متشابهة مادمت لا أريد – مهما كان الثمن – أن أذيعها .. لم يعد فى عزمى

إذاً إجراء تجارب .. أو اذا أردت التحديد ، لم يعد فى عزمى غير إجراء تجربة واحدة .. إذا سمحت بها الظروف ، فإذا لم أوفق فيها فكل ما قمت به يصبح حلما مفجعا .

ـــ وستطلق لوليم سلاتر الحرية .

ـــ بل تحرره أنت بنفسك هذا المساء .

وفى المساء كسرت الكرة رقم ١ ، غير أننى قبل كسرها احتفظت بها طويلا بين يدى ، هل سأضع حدا – بكسرى هذه الكرة – لحياة وليم سلاتر الثانية القصيرة ؟ لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الحقيقة ، ولذلك كان أسلمَ طريق هو ترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، فتركت الكرة تقع على جسم صلب وخيل إلى أنه امتزج بصوت انكسار الزجاج صوت يشبه النوس ضعيف بالغ الضعف يلوح كأنه بعيد بالغ البعد ، ومع ذلك فقد كان مسموعا .

استطعت أن أؤكد للدكتور دجبى حينما قابلته أن جيمس عدل عن الأبحاث التى كانت مصدر فزع عند أولياء الأمر فى المستشفى ، ولكن دجبى لم يكن يجهل ذلك ، وما من شك فى أن طريقه إلى المعرفة كان جريجورى . **فأجاب** :

ـــ إنى سعيد بنبئك هذا فما كان فى استطاعتنا ان ننقذه فترة أطول من ذلك .

لم أشأ أقول له أن جيمس استثنى – حينما وعد بالعدول – تجربة واحدة يجريها إذا أتاحت له الظروف إجراءها ، وكنت أكاد أوقن بأن صديقى عندما استثنى تلك التجربة كانت عنده فكرة معينة محددة مهدت لى معرفتى به أن أحرزها . لقد رأيت أن عدم توفيقه فيما حاول من المزج بين روحين أو – على حد تعبيره – بين طيفين سيالين خيب – فى مرارة – أمله ، ولكن شعوره

بصدد ذلك ليس شعور عالم أخفق فى تحقيق فرضه . فجيمس عاطفى ، والعاطفة تقوده فى ذلك ، هى شعور حاد عميق موجع بأثر فرقة الموت الأبدية فى بنى الإنسان ، وكثيرا ما حدثنى عن الكلمات التى يتمنى الإنسان من أعماق قلبه أن لو كان قد قالها ، والتى لم يعد يمكنه أن يقوله إلا لجثة هامدة ، ولذلك كان من الطبيعى أن يجذبه ويصل إلى شغاف قلبه احتمال إمكان الوصول إلى عشرة أكثر دواما وأطول زمنا .

إنه بدلا من أن يرى القوة الحيوية تزداد باجتماع روحين فى عالم أطيافه الغريب كما كان يأمل ويرجو – رأى أنها – على العكس ، فكاد تطفىء إحداهما الأخرى ، ومع ذلك فإن جذوة أمله لم تخب ، ذلك أنه بدون شك فكر فى أن الإخفاق أتى من إن الكائنين اللذين قرب بينهما لم يخلقا ليمتزجا ، وقدر أنه حينما يمتزج كائنان بينهما انسجام كامل فإن نتيجة ذلك تكون حالة أرقى مما لو بقى كل منهما منفردا . لقد قلت إن جيمس يخفى تحت مظهره الساخر كائنا عاطفيا يؤمن بالصداقة والحب . فالتجربة الوحيدة التى استثناها إذاً هى أنه لو أتاحت له الظروف أن يشهد احتضار كائنين كانا فى الحياة الواقعية مثالا للانسجام والتناسق فإنه يحاول أن يجمع بينهما أيضا بعد الموت . ستقول إن هذا الظرف بعيد وقوعه ، ولكننى لا أرى ذلك ، فالواقع أننا نجهل ما فى الحياة من آلام ومن جمال مادمنا لم نختلط بحياة مدينة كبيرة كاختلاط رجل البوليس أو الطبيب . لقد شاهدت أثناء صلتى بالمستشفى ، طوال شهرين كاملين ، حالات كثيرة شديدة الغرابة فلم أعد استبعد شيئا ، ولكن إقامتى بلندن انتهت تقريبا ، ووقر فى نفسى أننى سوف لا أشاهد هذه التجربة الأخيرة للدكتور جيمس لو سمحت له الظروف بإجرائها . وفى أثناء الخمسة عشر يوما الأخيرة لم أره غير مرة واحدة . ذلك أننى كنت استنفد كل وقتى تقريبا فى العمل ، ثم إننى تقابلت فى السفارة بصديق فرنسى كان يقوم فيها بعمل السكرتير وكثيرا

ما أمضينا معا ساعات المساء ، لذلك لم أذهب إلى مستشفى سان برنابيه إلا فى عشية سفرى فقد اتصلت بالمستشفى تليفونيا لأسال جيمس عما إذا كان يمكن مقابلته فطلب إلى – عن طريق بواب المستشفى – الحضور لمقابلته فى حجرته حوالى الساعة التاسعة مساء .

لم يكن جيمس فى غرفته عند دخولى ، فتناولت كتابا وجلست ، غير أن الانتظار طال بى فكشفت ، لأقتل الوقت ، الستارة التى تحجب « الأطياف » على أمل أن أرى جيمس قد حررها حتى إذا لم يكن قد فعل طلبت منه الإذن فى أن أقوم أنا نفسى بذلك قبل السفر .

كانت « **فقاقيع الصابون** » فى مكانها العادى غير أننى دهشت عندما رأيت كرة جديدة تحمل رقم ١٠ و١١ مجرد عن الاسم ، ففهمت توا أن جيمس قام بعملية المزج التى صدمتنى فى شعورى ، وأحسست بأننى عليه حانق ... ١٠ و ١١ بدون اسم .. من كانا هذين المسكينين ؟ واستولى على نفسى قلق منهم لا يمكننى تحديده فى دقة .. لم تأخر جيمس ؟ إنه أعطانى موعدا محددا وهذا التأخير الطويل ليس من عادته .

أخذت أدير الكرة المجهولة بين يدى . وبينما أنا كذلك إذا بيدين توضعان على كتفى وجيمس يقول مرحا « مسكين أنت يايوربك » .. فأدرت وجهى نحوه ولشد ما كانت دهشتى من التحول الذى شاهدته على قسمات وجهه . إنى لم أر فى حياتى مطلقا كائنا إنسانيا يتحول هكذا من حالة إلى حالة أخرى فى قليل من الأيام . فقسمات وجهه التى هى عادة متغضنة جافة يلوح عليها الآن الهدوء والطلاقة ، ولم تعد ابتسامته ابتسامة سخرية بل ابتسامة بشاشة .

ــ ماذا حدث لك ياجيمس ؟

ــ حدث لى ؟ لاشيء .. ولم هذا السؤال ؟

ـــ آه . أيرى هذا ؟ .. إننى حقيقة سعيد ، وسأريك السبب .. هل لك ياصديقى العزيز أن تضع الكرة التى بين يديك ، والتى تتأملها بوجه عبوس ، فوق المدفأ .. حسن .. ساعدنى الآن على إخراج الآلة من ركن الغرفة هذا .. شكرا .. إلى الشمال قليلا .. أطفىء النور الآن .

وما إن أطفأت النور حتى ندت عنى صرخة كان الباعث عليها ما رأيت على المدفأ من ضوء لطيف يشع عن تلك الكرة الزجاجية ، هذا الضوء لا يمكن تشبيهه إلا بالبدر فى ليلة من ليالى الشرق أو من ليالى اليونان ، أثناء الصيف حيث السماء صافية والبدر فى أوج لألأته ، وفى ثنايا هذا التألق يتحرك تياران أشد إضاءة وأكثر لمعانا ، ويتحرك بتحركهما مجموعة من النجوم الماسية المتوهجة .

ـــ ياللعجب الساحر ؟ .. إنها لمعجزة أن تصل إلى مثل ذلك يادكتور .. تركنى الدكتور فترة أشاهد هذا المنظر الباهر ، ثم أضاء الحجرة وقص على ما يأتى : فى ملعب مجاور للمستشفى يقوم منذ خمسة عشر يوما شخصان بعرض ألعاب بهلوانية يرقصان فيها على الحبل . لم ير جيمس هذه الألعاب غير أن دجبى رآها ، ووصفها لجيمس ، وحدثنى عنها فيما بعد ، وكان يرى أنها منظر قادر فى نوعه لا يكاد الإنسان يصدق ما يشاهده فيه من مهارة وحذق بالغين . وكان اللاعبان ، تدوفرد هنلى . أخوين شقيقين وسيمين يتشابهان إلى درجة غير مألوفة ، وقبل أن يبدأ فى العمل يغطى الملعب بستار من القطيفة السوداء يظهر فوقها – أثناء قيامهما المذهل – جسمان شاحبان ، تضيئهما أنوار كشافة ، هما جسما الأخوين هنلى .

كان نجاح الأخوين كبيرا جدا حتى إن إدارة الملعب طلبت إليهما مد التعاقد أسبوعا آخر . فماذا حدث أول ليلة من هذا التعاقد الجديد ؟ لا ندرى .

والبوليس الآن بسبيل البحث ، ومهما يكن السبب فإن أحد الأسلاك الحديدية المتصلة بالحبال انقطع فسقط الأخوان ، وكانا على ارتفاع كبير ، وأصابتهما رضوض خطيرة . وما لبثا – بعد أن نقلا إلى المستشفى – أن مات أحدهما وتبعه الآخر بعد عدة دقائق .

وقال لى جيمس : أتى بهما إلى المستشفى إذاً ، ورافقهما أصدقاؤهما الذين حدثونى عن اتحادهما الوثيق ، وعن قوة العاطفة التى ألفت بين قلبيهما ، وعن عملهما المشترك ، فلم يمكننى – أمام هذه الفرصة النادرة – أن أكبت رغبتى فى القيام بآخر تجربة أريد إجراءها وكنت قد حدثتك عنها . اطمئن فما كان لجريجورى من الأمر شىء ، إذ أنى لم استعن فى عملى هذا إلا بعامل يشتغل فى المعمل لم يفهم فى الموضوع شىء من نقير .. وعدت إلى حجرتى الساعة الثالثة صباحا فجمعت هذين الطيفين ببعضهما ، وجلست أشاهد المنظر الباهر الذى أعجبت به الآن .. أتنصحنى الآن بكسر هذه الكرة ؟ ..

ـــ كلا ياعزيزى الدكتور ، فإنى وإن كنت لا أعلم ما يحدث فى داخل هذه الكرة غير أنى أستبعد ألا يكون كل هذا الجمال دليلا على السعادة الحقة . ورغم رغبتى القوية فى المكث فقد اضطررت – بسبب التأخير الكثير – أن أشرح أننى جئت لأودعه قبل سفرى .
سفرى .

فقال :

ـــ هذا صحيح .. إذا وداعا .. هل ياترى سنتلاقى ؟ إن الحياة حينما تفرق فإنها تفرق بقسوة . ومهما يكن الأمر فإنى شاكر لك هذه الأشهر التى كنت لى فيها صديقا مخلصا أمينا على السر .. ولهذا الإخلاص المصطفى ، ولهذه الأمانة البالغة على ما استودعتك من سر ، أرجوك أن تقدم لى خدمة أخرى ..

لم يؤن أوانها بعد .. وربما لا يحين موعدها قط ، غير أنه من المحتمل أن أحتاج إلى عونك يوما ما ، أما المكان الذى سأكون فيه فلا علم لى به ، ولكنى سأرسل إليك برقية ، وأرجوك أن تحضر مهما كان عملك حينئذ ، وأن تتخذ أسرع طريق لتكون بجانبى .. إنك تعرفنى حق المعرفة ، وتعلم أننى حينما أطلب إليك أمرا غريبا كهذا فما ذلك إلا لأسباب خطيرة .. وإنى أتعهد ألا أدعوك إلا مرة واحدة طول حياتك . ولكنى – لذلك – أطلب منك العهد والميثاق بالوفاء .

فقلت متأثرا بحديثه الخارج من أعماق قلبه :

لك عهدى وميثاق .

فأجاب :

كتب الله لك التوفيق فى حلك وترحالك .

ورافقني حتى وصلنا الباب . كان المساء جميلا غير أن القمر وسط الكواكب أقل ازدهارا من روحين كانا يضيئان منذ لحظة فوق المدفأة .

١٣

حينما تنبأ جيمس بأنى سأنساه كان موقفى من ذلك موقف المحتج . ومع ذلك فقد كان فيما قدره على حق . ففى أثناء السنين التى تلت افتراقنا شغلتنى أعمالى كثيرا .
ولم تتطلب منى الظروف العودة إلى انجلترا . نعم إنى كنت أفكر أحيانا فيما قضيت من أسابيع غريبة ، ولكنى كنت أفكر فيها كما لو كنت أفكر ، لافى ذكريات حقيقية ، وإنما فى قصة خيالية من مقدمتها إلى ختامها .

أما جيمس فإنه كتب إلى فى أوائل سنة ١٩٢٦ ليؤكد لى وعده بالعدول عن أبحاثه ، ثم كتب لى ثانية فى أكتوبر سنة ١٩٢٧ ليخبرنى بأن الآنسة أديث فيلبيس فقدت والدها وأنه على وشك الزواج بها . لم يثر ذلك فى نفسى أية دهشة . وما إن أرسلت لهما هدية صغيرة حتى تلقيت خطاب شكر من أديث فيلبيس ، أو بتعبير أدق ، من أديث جيمس تعرفنى فيه حاجتها إلى الراحة عدة أشهر فى جنوب فرنسا ، وأن زوجها سيأخذ إجازة من المستشفى ليرافقها فى سفرها ، وأنهما سيمران بباريس فى الأسبوع التالى ، غير أننى للأسف كنت فى الريف حينما وصل هذا الخطاب فلم أرهما عند مرورهما بباريس .

وفى شهر ديسمبر تلقيت من جيمس بطاقة عرفت فيها أنه يعيش مع زوجته فى كاب مارتن ، ويسألنى فيها عما إذا لم يكن فى عزمى أن أزورهما ، وعما

إذا كان فى نيتى السفر أثناء الشتاء أم أننى سأبقى بباريس فيصلنى فيها تلغراف منه عند الحاجة إلى ذلك ؟ فأجبته بأننى أرغب فى أن أمكث بمنزلى طول فصل الشتاء للعمل إلا إذا اقتضت غير ذلك ظروف ليست فى الحسبان .

فى منتصف يناير ١٩٢٨ طلب إلى كاتب نربطنى به صلة الصداقة أن أحل محله فى إلقاء محاضرة فى كوبنهاجن ، لايمكنه إلقاؤها بسبب اعتلال صحته ، فقبلت ، لأسدى إليه معروفا ، ولأرضى رغبتى فى معرفة الدانمارك ، تلك الرغبة التى ربما كان من مثيراتها قصة هيلدا جيمس التى لم أكن قد نسيتها ، وكان المقدر ألا يستغرق سفرى سوى خمسة أيام .

وصلت إلى كوبنهاجن صباح يوم كان من المفروض أن أحاضر فى مسائه ، وما إن نزلت من القطار حتى قدم لى أحد الأشخاص الذين استقبلونى برقية باسمى . فتحت البرقية فإذا بها : « احضر — جيمس ، فلوريدا ، كاب مرتان » فصعقت .. لم يكن قد دار بخلدى أن أعرف جيمس بهذا السفر القصير ، فكيف أتصرف وقد وطن نفسه على الاعتماد على عهدى ، ذلك العهد الذى كنت مصمما على الوفاء به . غير أن الظروف ستضطرنى أن أفى به فى بطء لم يكن متوقعا .

أنبأت المشرفين على تنظيم المحاضرة — وكانت مفاجأة غير سارة — بأن أعز أصدقائى على نفسى يحتضر ، وأننى لذلك أريد العودة ، وأرجو معرفة موعد أول قطار ، فعلمت — على أسف — أن ذلك لايكون إلا من الغد صباحا .

فقضيت يومى مع بواب الفندق انظر مواعيد القطارات المختلفة فوجدت أنه إذا صاحبنى التوفيق ، ولم يحدث طول رحلتى تأخر ما ، فإننى لايمكننى أن أكون بجانب جيمس إلا ثالث يوم ، وبما أن برقيته قد مضى عليها أربع .

وعشرين ساعة ، فإنه سيقضى بأنى فى غاية الإهمال ، لذلك بحثت فى أمر السفر بالطائرة فعلمت أن الجو غير ملائم للسفر وأن حركة السفر شتاء غير منتظمة . فلم يبق إلا أن أرسل أنا أيضا تلغرافا إلى جيمس لأشرح له السبب فى إبطائى وأعرفه بعذرى ، وهذا هو مافعلته . أما المحاضرة فقد ألقيتها وأنا متأثر ، فجاءت خيرا مما ألقيه عادة ، وجفا النوم جفنى ليلا ، ثم تركت كوبنهاجن فى الصباح .

وفى أثناء الساعات الطويلة التى قضيتها فى القطارات الدنمركية والألمانية ، والفرنسية ، وفى الجمارك ، وفى مكاتب جوازات السفر ، حاولت عبثا أن أتنبأ بما سيكون عند خاتمة مطافى . نعم إن شعورى كان يتجه بالطبع إلى نواحى الحزن والوفاة ، إذ كانت العلاقة الوثيقة القوية التى تربطنى بجيمس ، وتجعلنى بالنسبة له لا أعوض هى معرفتى بأبحاثه ، وتجاربه التى شاهدتها ، فإذا كان فى حاجة لاتحتمل التأخير إلى رؤيتى فما ذلك إلا لأعاونه أثناء تجربة من هذا النوع ، ولم يكن من العسير – طالما كان الأمر فى نظر جيمس مهما إلى هذا الحد – التنبؤ بهذه التجربة . هل سيقدر لى الوصول فى زمن مناسب ، هل سيقع كلانا فى مشادة مع السلطة الإقليمية الحاكمة ، لقد تذكرت بسرور أن السيد ريبلدى ، حاكم إقليم الألب ، ماريتيم كان صديقا لوالدى . فيمكن إذاً الاعتماد عليه فى تسهيل كثير من الأمور . أخذ القطار ينحدر وسط أشجار الزيتون والأنهار ذات المجرى المثقل بالحصى ، وبعد أن غادرنا مرسيليا تراءت لى زرقة البحر الشديدة والشراع البيضاء ، فى صورة حزينة . وبعد لأى ، وقد يئست من الوصول ، وقف القطار فى محطة روكبرون – كاب مرتان حوالى الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الشمس ساطعة . لم يستقبلنى جيمس بالمحطة ، غير أن هذا لم يدهشنى ، فقد كان من المستحيل عليه أن يعرف موعد القطار الذى يقلنى ، فأخذت سيارة إلى مسكنه . كان هذا المسكن بيتا صغيرا تحيط به الأشجار وسط حديقة ملأى بالأزهار وإنى لأذكر للآن تلك الرائحة الجميلة

التى أخذت بها بينما كنت أدق الجرس ، ومالبثت أن رأيت خادما مسرعا نحوى يلبس ملابس سوداء ، وخيل إلى أننى أعرفه ، وبينما كان يخطو مخترقا الحديقة ليفتح لى ، كنت أحاول أن أتذكر المكان الذى قابلته فيه . وما إن صار تجاهى حتى عرفت أنه بيجز ، ذلك الجندى الذى كان تابعا لجيمس أثناء الحرب والذى تقاسمت معه خدمته لمدة أشهر .

– نهارك سعيد يابيجز ها أنت ذا من جديد تعمل مع الدكتور ؟

– نهارك سعيد ياسيدى .. إننى وزوجتى هنا مع الدكتور جيمس والسيدة حرمه ، غير أننى شديد الأسف الآن إذ أخبرك بأن الدكتور مات . ألم تتلق برقيتى الثانية ؟

– كلا .. مات ؟.. جيمس ؟.. منذ متى ؟.. لقد وصلنى تلغراف منه منذ أربعة أيام .

– إنه كان قد مات ياسيدى .. تفضل بالدخول . ثم حمل حقيبتى إلى المنزل وقدم إلى مقعدا فى الحديقة وقص على مايأتى :

– إنك لتعلم ياسيدى إن زوجة الدكتور جيمس كانت مريضة جدا وقد أجريت لها عملية قبل موت أبيها بقليل .. ولم تكن فى صحة جيدة حينما تزوجت الدكتور بل كان يرى على وجهها علامات الموت ، ومامن شك فى أن الدكتور كان يرى ذلك ويعلمه .. لقد قلت دائما إن الدكتور قديس ، وأنه لم يتزوج الآنسة أديث إلا ليتمكن بسهولة من إحاطتها برعايته وعنايته . وحينما عرض على الدخول فى خدمته ومرافقتهما إلى فرنسا قلت لزوجتى : « ليس هذا مكاناً دائما ولكن يجب أن نقبل .. » لم نأسف قط على قبولنا ياسيدى .. فما كان فى العالم خير من الدكتور وزوجته وقد كانا يحبان بعضهما حبا شديدا .. ومارأيت فى حياتى قوما مثلهما سعداء مع قلة المورد وكانا –

عندما يكون الجو جميلا فى أثناء النهار – يذهبان معا للجلوس على شاطىء النهر ، أما فى المساء فإن الدكتور يقرأ بجانبها بصوت مسموع .. وهكذا أمضت السيدة حرم جيمس الشهرين الأولين وهى متمتعة بالصحة النسبية ، ثم أخذت منذ منتصف ديسمبر فى الشحوب ، والتزمت شيئا فشيئا الصمت ..

وماكان الإنسان ليخفى عليه – اذ ذاك – أنها فى نهاية أيامها وأنه لمن حسن الحظ أن الدكتور استمر حتى آخر ساعاتها يدخل فى روعها الأمل فى الشفاء .

كان يقول لها أنه سيعالجها بعلاج جديد اخترعه .. وكان يحضر من أجل ذلك ، فى حجرة من المنزل ، أجهزة غريبة ، فهذا ناقوس زجاجى كبير الحجم يرفعه الإنسان ويخفضه بالضغط على قطعة مستطيلة من الحديد ، وتلك كرات زجاجية ، وثم آلة مغطاة بقماش أسود .. وكان يسمى الدكتور هذه الحجرة معمله .. ولم يكن يباح لى ولا لزوجتى الدخول فيها .. ومع ذلك فلم أر الدكتور ينتفع قط بهذه الآلات إلا .. عفوا إنى قد نسيت أن أقول لك أهم شيء فى الموضوع .. منذ خمسة أيام أصاب زوجة الدكتور إغماء فمكثت فاقدة شعورها فترة طويلة ، كان الدكتور وزوجتى كلاهما يسهران بجانبها . وحوالى الساعة الواحدة صباحا أشار الدكتور على زوجتى بأن تذهب لتنام ، وأنه سيدعوها إذا كان بحاجة إليها ، ولكنه لم يدعها . فلما استيقظت حوالى الساعة الثامنة صباحا ذهبت إلى حجرة المريضة .. فدهشت إذ لم تجد السيدة على سريرها ولم تر للدكتور أثرا ، وكان على المنضدة الصغيرة خطاب باسمى .. فأتت زوجتى تعدو فزعة هلعة وبيدها الخطاب الذى خطه الدكتور المسكين .. قرأت هذا الخطاب وهاكه فاقرأه بدورك .

أخرج بيجز من جيبه خطابين قدم إلى واحدا منهما فقرأت « بيجز قم بكل دقة بما أقول لك مهما تراءى أنه غريب مدهش ... إن زوجة جيمس ماتت

اليوم صباحا ولارغبة لى فى البقاء بعدها وجثمانها فى الحجرة التى كنت أدعوها المعمل ، لاتدخلها ولاتمس شيئا منها ، أرسل التلغراف الذى تجده فى هذا الظرف إنه موجه إلى الضابط الفرنسي الذى كان معنا فى ايبر ، فإنه يحضر مباشرة ويقوم بكل مايلزم . لاتشغل نفسك بشيء ، إذا . أرسل التلغراف فقط وانتظر ، كل شيء سيكون على مايرام . وداعا. » .

– وحينئذ يابيجز ...

– انتظر ياسيدى ، كان مع هذا خطاب آخر باسمك ، لأجل أن أسلمه لك عند وصولك .

وهنا شعرت أن نغمات صوته ونبرات حديثه تحمل فى ثناياها شيئا من التأنيب ، كان الخطاب الذى قدمه لى مقفلا ففتحته وقرأت : « سأشق عليك ياصديقى ، وربما حملتك مالا تكاد تطيق ، غير أنك عاهدتنى ، ومامن شك فى أنك ستفي بعهدك وتفعل ماأطلبه . سيشرح لك بيجز ماحدث ، وهو ماتوقعته منذ أمد بعيد . ستفهم حينئذ (بل إنى لاأشك فى أنك قد فهمت قبل الآن) لم كنت – أثناء قيامك بلندن – أتابع فى تحمس بالغ هذه الأبحاث التى كنت ترى أنها طائشة ، ستجد بالمنزل معملا قريب الشبه جدا من ذلك الذى كنا نستخدمه فى سان برنابيه . وستجد تحت الناقوس الزجاجى الذى يتوسط الغرفة جثتى وجثة زوجتى . إنك تذكر الطريقة التى بها تفصل الكرة التى بأعلى الناقوس ، فاستعملها بعناية ، ثم خذ الكرة والحمها وضعها أمام الآلة السوداء التى تعرفها ، وأرجو أن ترى حينئذ شيئا من اديث ومنى . لست فى حاجة بعد ذلك أن أرشدك إلى ماأنتظر منك . فإذا وجدت طيفينا المختلطين يشبهان طيفى الأخوين اللذين تتذكرهما بدون شك ، فإن رغبتى أن تحتفظ بالكرة ، وأن تعهد بها إذا أمكنك إلى أنجالك ، وأحفادك . إنى بالطبع

لا أستطيع أن آمل الاحتفاظ بمثل هذه الكرة مدة طويلة ، فهى قابلة للكسر بسهولة ، غير أننى لم أسعد فى هذه الدنيا بحبى لاديث المسكينة إلا قليلا جدا ، فإذا نلت بفضلك السعادة بضع سنوات فى عالم لانزال نجهل أسراره ، فإنك تكون قد سجلت — على ما أعتقد لنفسك عملا خيراً .. »

وما أن أتيت على هذه الجملة حتى قطعت القراءة وقلت فى حرارة :

ــ رحماك ياإلهى ! لقد وصلت متأخرا جدا .. أين الدكتور وزوجته الآن ؟

ــ إنهما فى المقبرة ياسيدى .. ولقد انتظرت ، بعد إرسال التلغراف يومين .. ثم اعترانا ــ أنا وزوجتى ــ الخوف من العواقب ، فماذا نجيب حينما يطلب إلينا السبب فى ترك ميتين من غير دفن .. إننا فى قطر أجنبى ولا أعلم من الفرنسية إلا كلمات .. فذهبت إلى الجهات المختصة وقدمت الخطاب الذى كتبه لى الدكتور وأخفيت خطابك ، فحضر طبيب وكسر الناقوس .

ــ **كسر الناقوس** . لم يبق إذا من أمل ياببجز .. ولكن لم كسره طالما كان من السهل رفعه كما حدثتنى ؟

لست أدرى ياسيدى .. إنى لم أفهم ماقال .. ليس ببعيد أنه اعتقد عند دخوله ، حينما رأى هذين الجسمين تحت الناقوس ، أنه بصدد حالة اختناق .. وحينما انتهى من المعاينة والكشف قال إن الدكتور تناول سما .. هذا هو ما اعتقدت أننى فهمته منه ، ولاتنس أننى أخبرتك بأنى لا أحسن الفرنسية .. ومهما يكن من الأمر ، فإننى لا أتبين للآن ذلك الذى كان يريده الدكتور ياسيدى .. لنفرض أنك جئت عقب وصول التلغراف إليك مباشرة ، فماذا كنا نصنع مادام لم يكن على قيد الحياة ؟

قطعت عليه حديثه ، وطلبت إليه أن يقودنى إلى المعمل ، فقد كنت أعلل

النفس بالأمل وأريد أن أقدر مساعدة الحظ وبقاء الكرة ، بحالها ، لم تمس ، غير أنى للأسف ، وجدت الغرفة مملوءة بقطع الزجاج المتناثرة ، ولم يبق من الناقوس ولامن الكرة إلا قطع صغيرة ، ومامن شك فى أن هؤلاء الذين وجدوا الجثتين لم يعنهم من الأمر إلا إنجاز مهمتهم بسرعة ، ولا لوم عليهم فى ذلك ، وإلا فكيف كان يمكنهم التكهن بما فى الكرة التى بأعلى الناقوس ؟

ويوجد أيضا ياسيدى هذه العلبة الصغيرة وقد ألصق بها الدكتور ورقة وأمرنى أن أسلمها لك وقد أخفيتها بحجرتى عند مجىء رجال الحكومة .

– علبة ؟ وماذا تحوى ؟

– لست أدرى ياسيدى .

فتحت العلبة فإذا بها كرة مثل ماكان بمستشفى سان برنابيه موضوعة على طبقة من الورق فشعرت بشىء من الأمل ورفعت الكرة فرأيت عليها بطاقة أعرفها جيدا « ١٠ – ١١ ند وفرد هنلى »

مسكين جيمس أيكتب له النجاح فى جعل الآخرين يبقون بعد الموت ، بينما يخفق بالنسبة للنفسه ، مع شدة رغبته فيما أتاحه للآخرين ؟

ذهبت إلى المقبرة أحمل أزهارا أضعها على قبر اديث وهوارد بروس جيمس ، ثم سافرت فى المساء إلى باريس محتفظا بين يدى بالعلبة التى تركها لى جيمس . كانت العناية التى أسديتها إلى هذه العلبة شديدة ، وذلك لما كنت أشعر به من ندم مبهم . حقا إنه لاعلم لى بنوع الحياة التى أراد جيمس أن يصير إليها مع من أحب ، ولكننى عاهدته على أن أقوم بما ينبغى ليصل إليها ، فإذا به قد حرم – برغمى ، مافى ذلك من شك ، ولكن بسبب خطأ صدر منى – من ثمرة أبحاثه ، ولقد تساءلت غير مرة عما كان ينبغى أن أفعل . أكنت أخبر

جيمس قبل السفر إلى كوبنهاجن ؟ لم يتسع لى الزمن فضلا عن أنى ، إذا كنت قد لمحت تقريبا مايريده منى ، فإنى لم أفكر قط فى وضوح ، ولم يدر بخلدى أن جيمس يريد أن يموت فى وقت واحد مع زوجته . أأنا المسئول وحدى عن عدم الفهم والتقدير ؟ ألم يكن فى مقدوره – هو الذى يعلم غاياته وأهدافه – أن يتوقع كل العقبات وأن يتخذ لها العدة ، خصوصا وهو بصدد تجربة فريدة ، إذا أخطأها التوفيق فلا يمكن إعادتها ، ألم يكن يمكنه أن يعطى إلى بيجز تعليمات محددة ، يتبعها إذاً حالت الظروف دون مجيئى ؟ إنه اعتقد من غير شك أن بيجز لايستطيع فهم شيء من ذلك ، أو أنه لايقوم به على ماينبغى مع أنه يتطلب من العناية والدقة الشيء الكثير أخذت هذه الأفكار تتردد فى ذهنى حتى وصلت إلى باريس وأنا فى شدة الإعياء والحزن فقلت فى نفسى إن التفكير فى الماضى لايجدى فتيلا .

مكثت مدة طويلة أمنع نفسى عن التفكير فى تجارب مستشفى سان برنابيه ، وخاتمة جيمس المحزنة ، ولكنى منذ شهور أشعر بالمرض ، وأشعر باقترابى من الموت ، ولذلك بدا لى أن من واجبى إذاعة قصة يضعها العقل فى دائرة الخيال ، ومع ذلك فهى حقيقة واقعية ، أتاحت لى المصادفات أن أشهدها ، وهذه الإذاعة نفسها هى الطريقة الوحيدة التى أراها أهلا للاحتفاظ فى عناية بالغة بالكرة التى تحتوى على طيفى ند وفرد هنلى .

فى مساء الأمس ، نظرت إليهما – وربما كانت تلك هى النظرة الأخيرة – بوساطة أشعة الآلة التى تركها لى الدكتور فلم أجد أن سناهما نقص عنه يوم أن نظرت إليهما أول مرة فى حجرة جيمس ، وصدرت عنى صيحة إعجاب .

إن هذا البقاء المدهش لظاهرة غاية فى الجمال يزيدنى ألما على ألم إذ لم أتمكن من القيام لأديث جيمس وزوجها بمثل ذلك .

أما الكرة الزجاجية فقد وضعتها فى مهد صغير تغطيه ستارة زرقاء ، وتحيط به شبكة من الأسلاك الحديدية وهو موضوع على يمين مكتبى .

« تم بحمد الله »

مَطابِعُ مؤسسة دار الشعب ـ للصحافة والطباعة والنشرُ
٩٢ شارع قصر العيني ـ القاهرة ت ٣٥٥١٨١٠١ ـ ٣٥٥١٨١٨ ـ ٣٥٤٢٨٠٠

مختارات من مطبوعات الشعب

- يسقط الحائط الرابع .
  - أنيس منصور .
- شقاوة بنـات .
  - محمد مصطفى .
- المختار من تاريخ الجبرتى .
  - محمد البقلى .
- زكى مبارك ناقدا .
  - للدكتور زكى مبارك .
- همت تتنازل عن العرش .
  - عاطف الغمرى .
- عودة الابن الضال .
  - محمود البدوى .
- نسمات ايمانية .
  - د . أحمد عمر هاشم .
- الاسلام ورعايته للطفولة
  - منصور الرفاعى عبيد .
- من آخر كلمات العقاد .
  - عامر العقاد .
- حب طوته الأمواج .
  - ميرفت اسماعيل عبد التواب
- الرياح والسكينة .
  - د . أحمد درة .
- الفن والبساطه عند ثروت أباظة
  - محمد قطب عبد العال .

رئيس قطاع النشر والتسويق

سعاد قنديل

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٩٨/ ١٩٩٣م

هـــذه القصـــة

فى مقدمته الرائعة التى إستهل بها ترجمته لرائعة أندرية موروا ، أوضح الدكتور عبد الحليم محمود القيمة الحقيقية لهذا العمل الخالد فى تاريخ الأدب العالمى وهى إثراء التفكير فى أمر « الروح » من مختلف جوانبه .

وعندما ترجم الدكتور عبد الحليم محمود رائعة أندريه موروا « وازن الأرواح » كان يؤدى دوره الأساسى الذى وهب حياته وعلمه من أجله وهو تحقيق التوازن المطلوب بين قضايا المادة وقضايا الروح .

وتكمن القيمة الحقيقية لهذا العمل الخالد فى إثارته لقضية « الروح » من مختلف جوانبها وبالشكل الذى يدفعنا لتأمل العديد من القضايا الهامة المتصلة بالروح وسر الوجود وغاية الانسان فى الحياة .

وما أحوجنا اليوم لمثل هذه اللمسة الحانية وسط الضغوط المادية التى تؤثر على روحنا وتحرم الإنسان من أنبل وأرقى ما غرسته الرسالات والأديان فيه من قيم روحية خالدة .